مشاهد يوم الدين

كما صورته سورة التكوير

إعداد الدكتور /

السيد عبد الرؤف ابراهيم

الاستاذ المساعد بكلية اصول الدين

والدعوة بالزقازيق

جامعة الازهر

من ٢٢٥ إلى ٣٠٠

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد:

فإن من المقطوع به أن شرف الأشياء يكون بشرف موضوعها ونفاسته، وبحث موضوعه القرآن الكريم أنعم به وأكرم ، لأنه كلام الله الذى من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه فقد هدى إلى صراط مستقيم.

وبحثى هذا والذى هو بعنوان (مشاهد يوم الدين كما صورته سورة التكوير) هو مما وفقنى الله إليه ، وهدانى إلى الكتابة فيه ، راجيا أن يكون زخرا لى فى الحياة وبعد الممات ، وأن ينفع الله به كل من تلمسه يداه للقراءة والعمل بما فيه وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وهذا البحث تفسير موضوعى لمشاهد يوم الدين كما صورته سورة التكوير ، وحيث أن هذه المشاهد فى القرآن الكريم كثيرة ومتعددة ، ولعل السبب فى ذلك هو أخذ العبرة والعظة والاستعداد للموت قبل نزوله لأن من مات فقد قامت قيامته ، تلك المشاهد التى تزلزل النفوس وتذهل العقول ، لا يستطيع الإنسان أن يعطى لها وصفا لعجز بيانه ، ولا وصف أبلغ من وصف الله لها حيث يقول (يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزله الساعة شئ عظيم. يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد)[1] ولا ريب أن ما ذكره القرآن من غيبات لا محالة واقع لأنه تنزيل من حكيم حميد ، والعبد مطالب بالتزود بالتقوى قبل الرحيل ، وهذه المشاهد فيها تنبيه للغافلين ، وزجر للمصرين على الذنوب ، وزاد للسالكين فما أحوج العبد لدراسة هذه المشاهد ! لين قبله وتقوى عزيمته على طاعة الله.

---

(١) سورة الحج / ١ ، ٢

ولقد تأملت سور القرآن الكريم ملتمسا سورة تفى بالمقصود وتصف مشـــاهد هذا اليوم الموعود فوقع اختيارى على سورة التكوير لتكون موضوعا لبحثى هـــذا ، حيث بدأت فى مطلعها بالحديث عن اثنا عشر مشهدا من مشـــاهد القيامـــة وأشـــراط الساعة فأفتتحت بالحديث عن أول هذه المشاهد وهو تكوير الشمس وكان ختام هـــذه المشاهد هو الحديث عن إزلاف الجنة للمتقين.

هذا وأسال الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم وأن ينفعنا به فى الدنيا والآخرة .

اسم السورة ومكان نزولها

هذه السورة الكريمة من السور التى لم يثبت عن النبى ﷺ أنه سماها تسمية صريحة كما ذكر ابن عاشور[١] وما ورد فى الحديث الذى رواه الحاكم[٢] وصححه عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى العين فليقرأ(إذا الشمس كورت) و (إذا السماء انفطرت) و (إذا السماء انشقت).

قال ابن عاشور: ليس هذا صريحا فى التسمية لأن صفة يوم القيامة ليست فى جميع السورة بل هو فى الآيات الأولى منها فتعين أن المعنى فليقرأ هذه الآيات ،وعنونت فى صحيح البخارى[٣] وفى جامع الترمذى[٤] (إذا الشمس كورت) وكذلك عنونها الطبرى[٥] ، وأكثر المفسرين يسمونها (سورة التكوير) وكذا تسميتها فى المصاحف وهو اختصار لمدلول (كورت).وتسمى سورة (كورت) تسمية بحكاية لفظ وقع فيها ، ولم يعدها فى الإتقان من السور التى لها أكثر من اسم[٦] . وسورة التكوير مكية فى قول جميع المفسرين. قال القرطبى : مكية فى قول الجميع[٧] ، وقال الألوسى : مكية بلا خلاف[٨].

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور جـ١٥ ص ١٣٩ دار سحنون للنشر والتوزيع

(٢) اخرجة الحاكم من مستدركه / كتاب التفسير (تفسير إذا الشمس كورت) جـ٤ / صـ ٦٢٠ برقم ٨٧١٩ قال الحاكم هذا حديث صحيح ولم يخرجاه

(٣) صحيح البخارى / كتاب التفسير / باب تفسير (إذا الشمس كورت) / جـ ٤ صـ ١٨٨٣ طبعة دار اليمامة بيروت

(٤) سنن الترمذى / كتاب التفسير / باب من سورة (إذا الشمس كورت) جـ٥ صـ٤٣٣ دار احياء التراث العربى

(٥) تفسير الطبرى / جـ٣٠ صـ ٤٠ / دار المعرفة الطبعة الثالثة سنه ١٩٧٨ / بيروت

(٦) التحرير والتنوير جـ١٥ صـ١٣٩

(٧) تفسير القرطبى جـ١٩ صـ ١٩٧ تحقيق عبد الرزاق المهدى / دار الكتاب العربى.

(٨) تفسير الالوسى جـ٣٠ / صـ٤٩ / دار احياء التراث العربى / بيروت / ط٤.

مناسبة السورة لما قبلها

جاءت سورة التكوير شارحة لأحوال يوم القيامة وذلك على النحو التالى :-

١- لما ذكر سبحانه فى سورة عبس مجىء الصاخة التى تصم الآذان ترجف لها القلوب ، وأنه قادر على بعث الإنسان بعد موته ذكر فى سورة التكوير ما يسبق ذلك من خراب العوالم العلوية والسفلية إيذانا بفنائها وقيام الساعة فقال سبحانه (إذا الشمس كورت. وإذا النجوم انكدرت....)

٢- لما لفت سبحانه الأنظار والعقول إلى عجائب قدرته وبديع صنعه فى الإنسان والحيوان والنبات فى سورة عبس ذكر فى سورة التكوير أشراط الساعة ومشاهد القيامة فبدأ بأولها وهى الشمس التى يستمد منها الضوء والطاقة اللازمتان لحياة الخلائق وبتكويرها تنعدم أهم أسباب الحياة.

٣- لما تحدث سبحانه وتعالى فى سورة عبس عن عظمة القرآن ومدى عناية الله به وأنه(فى صحف مكرمة ، مرفوعة مطهرة ، بأيدى سفرة ، كرام بررة) أقسم فى سورة التكوير (بالخنس الجوار الكنس،والليل إذا عسعس . والصبح إذا تنفس) على أن القرآن الذى هو كلام حق ثابت من غير تحريف ولا تنبديل نزل به الروح الأمين على قلب أشرف المرسلين محمد ﷺ.

٤- لما ذكر سبحانه وتعالى فى خواتيم سورة عبس انقسام النفوس إلى فريقين هم أهل السعادة ، وأهل الشقاوة ، وأن أهل السعادة قد أستنارت وجوههم ، واستبشروا بحسن مآلهم وأن أهل الشقاوة قد أسودت وجوههم واستشعروا الخيبة والندامة بسوء مصيرهم ذكر فى سورة التكوير تزويج هذه النفوس فأهل السعادة مع أهل السعادة ، وأهل الشقاوة مع أهل الشقاوة فقال تعالى (وإذا النفوس زوجت)

قال الإمام أبو جعفر بن الزبير: لما قال سبحانه (فإذا جاءت الصاخة يوم يفر المرء من أخيه) الآيات إلى آخر السورة كان مظنة لاستفهام السائل عن الوقوع ومتى يكون؟ فقال تعالى(إذا الشمس كورت) ووقوع تكوير الشمس وانكدار النجوم

وتسيير الجبال وتعطيل العشار كل ذلك متقدم على فرار المرء من أخيه وأمه وأبيه-إلى ما ذكر إلى آخر الساعة فيصح أن يكون أمارة للأول وعلما عليه[١] .

وقال الإمام البقاعى : لما ختمت سورة عبس بوعيد الكفرة الفجرة بيوم الصاخة لجحودهم بما لهذا القرآن من التذكرة ، ابتدئت هذه - يعنى التكوير - بإتمام ذلك ، فصورت ذلك اليوم بما يكون فيه من الأمور الهائلة من عالم الملك والملكوت حتى كأنه رأى عين[٢].

(١) البرهان فى سور القرآن للحافظ بن الزبير / صـ ٢٢٣ / تحقيق سعيد الفلاح. إدارة الثقافة والنشر. المملكة العربية السعودية

(٢) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للبقاعى جـ٨ / صـ ٣٤٠ / تحقيق عبد الرازق غالب المهدى / دار الكتب العلمية : بيروت. وانظر تناسق الدرر فى تناسب السور لجلال الدين السيوطى / صـ١٣٣ تحقيق عبد القادر أحمد عطا / دار الكتب العلمية. بيروت

المعنى العام للسورة

سورة التكوير من السور المكية التى تعالج حقيقتين هامتين هما : حقيقة القيامة ومشاهدها ، وحقيقة الوحى والرسالة ، وكلاهما من لوازم الإيمان.

ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن الحقيقة الأولى بذكر ما يحدث عن فناء العالم وما يصاحب ذلك من انقلاب كونى هائل يشمل الشمس ، والنجوم ، الجبال ، والبحار ، والأرض ، والسماء ، والأنعام والوحوش كما يشمل البشر ، يرتجف الكون رجفه عنيفة فينفرط عقده ويختل نظامه ، ولا يبقى منه شىء إلا وقد تبدل وتغير من هول ما يحدث فى هذا اليوم الرهيب ، فتتكور الشمس ويمحى ضؤها ، وتتساقط النجوم ويطمس ضؤها ، وتزول الجبال عن أماكنها فتسير فى الجو كالعهن المنفوش ، وتسجر البحار وتشتعل ، وتزول حواجزها وتنفجر حتى تصبح بحرا واحدا من نار ، وتعطل العشار ويذهد الناس فى الأموال والأملاك لانشغالهم بأنفسهم ، ويدفع البلاء النازل الوحوش للفرار إلى أكنانها يلوذ بعضها ببعض طلبا للنجاة من الهول المحدق ، وبعدالنفخة الثانية – تقرن الأرواح بأجسادها كما يقرن بين النفوس وأشكالها فى دار السعادة أو الشقاء ، ويسأل كل إنسان عن عمله كما يسأل المقتول عن سبب قتله ، وتنشر الصحف ليعاين كل إنسان عمله بنفسه ، وتكشط السماء وتقلع كما يقلع السقف إيذانا بتبديلها كما قال تعالى (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبزور الله الواحد القهار)[1] وتسعر الجحيم ويزاد فى إيقادها تهيئة لاستقبال أصحابها ، وتزين الجنة وتدنوا من خطابها ، عندئذ تعلم كل نفس ما أحضرت.

ثم تحدثت السورة في نصفها الثاني عن حقيقة الوحي والرسالة فبدأت بقسم الله بعظيم مخلوقاته أن القرآن حق ثابت من عند الله نزل به رسول كريم على خير البشر محمد ﷺ ، ثم ختمت السورة ببيان بطلان مزاعم المشركين حول القرآن ،

---

(١) سورة إبراهيم / ٤٨.

والتأكيد على أنه موعظة للمتقين (فأين تذهبون إن هو إلا ذكر للعـــالمين)[١] وبهذا البيان انكشفت الشبه ، وانتفى كل ريب ، وسقط كل عذر ، فمن شاء من العباد أن يتقدم مستقيماً على طريق الحق فله أجره ، ومن شاء منهم أن يتـــأخر منحرفـــا بنفسه إلى طريق الهوى والضلال فعليه وزره (ومـــا تشـــاؤن إلا أن يشـــاء الله رب العالمين)[٢].

١) سورة التكوير /٢٦، ٢٧.

٢) سورة التكوير /٢٩.

مشاهد يوم الدين

١- المشهد الأول : تكوير الشمس

٢- المشهد الثانى : انكدار النجوم

٣- المشهد الثالث : تسيير الجبال

٤- المشهد الرابع : تعطيل العشار

٥- المشهد الخامس : حشر الوحوش

٦- المشهد السادس : تسجير البحار

٧- المشهد السابع : تزويج النفوس

٨- المشهد الثامن : سؤال الموؤدة

٩- المشهد التاسع : نشر الصحف

١٠- المشهد العاشر : كشط السماء

١١- المشهد الحادى عشر : تسعير الجحيم

١٢- المشهد الثانى عشر : إزلاف الجنة

المشهد الأول

تكوير الشمس

قال تعالى: ﴿إذا الشمس كورت﴾[١]

هذا هو أول المشاهد المروعة التى تسبق قيام الساعة كما أوردته السورة الكريمة، إنه مشهد تكوير الشمس ومحو ضوئها من عالم الشهادة ، وطى أشعتها كطى الثوب والسجل ، إيذانا باختفائها ، وطمس معالمها عن الأبصار ، وانتهاء نفعها لكل نسمة تدب على ظهر الأرض ، تلك النعمة التي لا يستغنى عنها مخلوق ، يطفأ نورها فجأة ، ويذهب إلى غير رجعة تاركاً الخلائق في ظلام لا ينتهى ، وهلع لا يطاق ، يموج بعضهم فى بعض ، لا يدرون أين يذهبون ، حدث مفاجىء ذهب بنعمة هى من أجل النعم التى خلقها الله وسخرها لخلقه إنها نعمة النور والضياء ، والحرارة والطاقة ، نعمة بها يتحرك الناس ويمشون ، ويغدون ويرحون تحقيقاً لخلافة الله فى أرضه وإعمارها للعيش الانسانى ، نعمة يعرفون بها أوقات عبادتهم ومصالحهم ، بذهابها يصبح الناس من هول الصدمة وفجأة المباغته حيارى لا يهتدون إلى سبيل ، قد اضطربت معايشهم ، وتداخلت أوقاتهم ، واختلطت أزمنتهم ، فلا يعرفون ليلاً من نهار ، ولا صباحاً من مساء ولسان حالهم يقول رب سلم سلم.

تلك هى الشمس آية من آيات الله فى كونه ونعمة من أجل النعم على عباده ، دالة على كمال القدرة وعظمة المنعم ، سخرها لخلقه فأذعنت لأمره وانقادت ، وخضعت لإرادته واستجابت ، فما تخلفت يوماً عن مهمتها ، ولا توانت عن أداء وظيفتها انتفع بها الكافر الجاحد ولم يشكر ، وكانت من أبرز الأدلة فى كتاب الكون المنظور على وجود الله ووحدانيته فجحد وصار ينكر ، كما انتفع بها المؤمن ، فانقاد لأمر ربه وشكر ولم ينكر قال تعالى (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر

---

(١) سورة التكوير /١.

لاتسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون)[١] قد جعل الله الشمس والقمر علامتان على وجود الليل والنهار فعلامة الليل حلول الظلام وظهور القمر فيه ، وعلامة النهار حلول الضياء وطلوع الشمس المنيرة فيه قال تعالى (هو الذى جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون)[٢] وقال تعالى (وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شىء فصلناه تفصيلا)[٣] أى لتعلموا بمحو آية الليل وجعل آية النهار مبصرة عدد السنين والحساب التى تتوقف عليها معاملاتكم وعباداتكم وغير ذلك مما دل عليه قوله تعالى (فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم)[٤] .

يقول ابن كثير : يمتن الله على خلقه بآياته العظام فمنها مخالفته بين الليل والنهار ليسكنوا فى الليل وينتشروا فى النهار للمعاش والصنائع والأعمال والأسفار ، وليعلموا عدد الأيام والجمع والشهور ، والأعوام ، ويعلموا مضى الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات والإجارات وغير ذلك[٥]

تلك هى الشمس فى أبهى منافعها وأعظم فوائدها يأذن الله لها بانتهاء مهمتها وتسخيرها فيكور نورها ، ويجمع أشعتها ويمحى ضوؤها إيذاناً بخراب الدنيا وقيام الساعة كما قال تعالى (إذا الشمس كورت).

وأصل التكوير فى اللغة : لف الشيىء على جهة الاستدارة.

---

(١) سورة فصلت / ٣٧.

(٢) سورة يونس / ٥.

(٣) سورة الإسراء / ١٢.

(٤) سورة الأنعام / ٩٦.

(٥) تفسير ابن كثير /جـ٣ / صـ ٣٩/ مؤسسة الريان.

وكورت (الشمس) : جمع ضوؤها ولف كما تلف العمامة ، أو اضمحلت وذهبت[١].

وقد افتتحت السورة الكريمة بـ (إذا) والابتداء بها يبعث على الفزع والتهويل ، ـ وهى ظرفيه مشربة معنى الشرط كما ذكر ابن عاشور[٢] ، فكونها ظرفا يستدعى معلقا ، وكونها وما بعدها من الظروف الإثنى عشر مشربه معنى الشرط يستدعى جوابا هو قوله تعالى (علمت نفس ما أحضرت).

وإذا كان الابتداء بـ (إذا) فى هذه السورة باعث على الفزع والتهويل كما سبق ، فإن تكرارها بعد واو العطف في هذه الجمل المتعاطفة إطناب ، وهذا الإطناب اقتضاه قصد التهويل – أيضا – ، والتهويل من مقتضيات الإطناب والتكرير كما ذكر ابن عاشور[٣] رحمه الله تعالى.

وقد ذكرت السورة الكريمة اثنى عشرمشهدا من مشاهد يوم القيامة ستة منها تحدث قبل قيام الساعة مؤذنة بخراب العالم وفنائه ، وستة منها تحدث بعد قيام الساعة مؤذنة بانقسام الناس إلى فريقين فريق في الجنة وفريق في السعير، وقد ورد في بيان الستة الأولى حديثا لأبَى بن كعب رضي الله عنه حيث أورد ابن كثير في تفسيره عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبَى بن كعب قال : ست آيات قبل يوم القيامة ، بينا الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس ، فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم ، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت واضطربت واختلطت ففزعت الجن إلى الإنس والإنس إلى الجن ، واختلطت الدواب والطير والوحوش فماجوا بعضهم في بعض[٤].

---

(١) المعجم الوسيط / جـ٢ / صـ٤٠٨ ، المفردات للراغب / صـ٤٤٥.

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور / جـ ١٥ / صـ١٤١.

(٣) المصدرالسابق / جـ١٥ / صـ١٤٠.

(٤) تفسير ابن كثير / جـ٤/ صـ٦١١ / مؤسسة الريان.

وأورد القرطبى[١] في تفسيره عن ابن عباس في قوله تعالى (إذا الشمس كورت) إلى قوله (وإذ الجنة أزلفت) اثنتا عشرة خصلة : ست في الدنيا ، وست في الآخرة ، وقد بينا الست الأولى بقول أبَى بن كعب الذي ذكره ابن كثير في تفسيره.

فإن قلت: ما الحكمة فى تقديم المسند إليه وهو (الشمس ، والنجوم ، والجبال....) في الجمل الإثنتا عشرة المصدرة بـ (إذا) والإخبار عنه بالمسند الفعلى مع إمكان إن يقال (إذا الشمس كورت) كما ذكر ذلك سبحانه فى قوله (فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان)[٢] ؟.

قلت : الحكمة من هذا التقديم إفادة أمرين :-

الأول : الاهتمام بالمقدم.

أي الاهتمام بحصول تلك المشاهد الكونية ، والتي جعل بعضها أشراطا ليوم القيامة، فكان الاهتمام بها اهتماما بيوم القيامة ذاته، والتأكيد على تحقق وقوعه.

الثانى : التشويق إلى المؤخر .

وبيانه أنه في الإطناب بذكر أشراط هذا اليوم وما يقع فيه من أهوال عظام وخطوب جسام تشويق مشوب بالتخويف والتهويل للجواب الواقع بعدها حيث تتشوق نفس السامع إلى معرفة الجواب الحاصل والهول الواقع ، فإذا جاءها البيان بعد تشوق وترقب تمكن منها أيما تمكن.

فإن قلت : هل الرفع الحاصل في (الشمس) على الإبتداء أو على الفاعل ؟.

اختلف المفسرون في ذلك ، فمنهم من جعل الرفع على الفاعلية بفعل مضمر يفسره قوله تعالى (كورت) لأن (إذا) يطلب الفعل لما فيه معنى الشرط وهو قول الزمخشرى[٣]. لكن

---

(١) تفسير القرطبى / جـ١٩ / صـ٢٠٥ / تحقيق عبد الرزاق المهدى / دار الكتاب العربى.

(٢) سورة الرحمن / ٣٧.

(٣) الكشاف للزمخشرى / جـ٦ / صـ٣٢٠ / تحقيق الشيخ عادل احمد عبد الموجود والشيخ على محمد معوض / مكتبة العبيكان.

أبا حيان[١] خالفة في ذلك ، وذكر أن ما أورده الزمخشرى ليس مجمعا عليه عند النحاة ، بل يجوز رفع (الشمس) على الابتداء عند الأخفش والكوفيين ، لأنهم يجيزون أن تجىء الجملة الإسمية بعد إذا نحو (إذا زيد يكرمك فأكرمه).

هذا وقد اختلف المفسرون فى المراد من التكوير الوارد فى الآية على أقوال نوردها على النحو التالى :-

القول الأول : رواه على بن أبى طلحة عن ابن عباس أنها اظلمت ، وقال الفراء ذهب ضوؤها. وهو قول قتادة ومقاتل[٢].

القول الثانى : أن تكوير الشمس يعنى ذهابها ، رواه عطية عن ابن عباس. وقال مجاهد : اضمحلت[٣]

القول الثالث : أنها غورت ، وهو مروى عن ابن عباس أيضا ، وسعيد بن جير ، وابن الأنبار[٤]

القول الرابع :أنها تلف وتمحى كما تلف العمامة ، قاله أبو عبيد ، وقال الزجاج : معناه جمع ضوؤها[٥]. قال المفسرون : تجمع الشمس بعضها على بعض ثم تلف ويرمى بها في البحر ، وقيل في النار ، وقيل تعاد إلى ما خلقت منه[٦].

القول الخامس : كورت بمعنى نكست قاله أبو صالح[٧].

القول السادس : رمي بها قاله الربيع بن خيثم ، ومنه قوله كورته فتكور أى سقط[٨].

---

(١) البحر المحيط لابى حيان / جـ٨ / صـ٤٣٧ / دار الكتاب الاسلامى القاهرة

(٢) تفسير ابن كثير / جـ٤ / صـ٦١٠ ، زاد المسير / جـ٨/ صـ٢٠٧ / دار الكتب العلمية.

(٣) زاد المسير / جـ٨ / صـ٢٠٧.

(٤) المصدر السابق.

(٥) القرطبى / جـ١٩ / صـ١٩٧ ، زاد المسير / جـ٨ / صـ٢٠٧.

(٦) زاد المسير / جـ٨ / صـ٢٠٧.

(٧) ابن كثير / جـ٤ / صـ٦١٠.

(٨) القرطبى / جـ١٩/ صـ١٩٧.

هذه جملة أقوال المفسرين في المراد من التكوير في الآية وبعد التأمل فيها أرى أنه لا تعارض بينها ، وأن القول الرابع يجمعها ، لأن الشمس إذا كورت ولفت كما تلف العمامة تجمع بذلك أشعتها وتطوى ، ويغور ضوؤها حتى تصبح مظلمة معتمة بعد أن كانت مضيئة ثم يرمى بها حيث يريد الله تعالى وهذا ما ذهب إليه القرطبى[١] وغيره من المفسرين.

قال الطبرى : والصواب من القول فى ذلك عندنا أن التكوير فى العرب جمع بعض الشيىء إلى بعض وذلك كتكوير العمامة وهو لفها على الرأس ، وكتكوير الكارة وهوجمع الثياب بعضها إلى بعض ولفها ، وكذلك (إذا الشمس كورت) إنما معناه جمع بعضها إلى بعض ثم لفت فرمى بها ، وإذا فعل ذلك بها ذهب ضوؤها[٢].

فإن قلت متى يحدث هذا التكوير الحاصل للشمس ؟

قلت : إن هذا التكوير الذى تحدثت عنه الآية هو من المشاهد التي تحدث قبل يوم القيامة ، والناس أحياء ينظرون إلى الشمس حين تكويرها ، وهو من الآيات الست التى تكون قبل قيام الساعة كما فى حديث ابّى بن كعب الذى سقناه آنفا وفيه (ست آيات قبل يوم القيامة ، بينما الناس فى أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس ... الحديث)[٣]

وإن قلت : هل هذا المشهد الحاصل للشمس من تكويرها وذهاب ضوؤها حاصل قبل انشقاق السماء وانفطارها المذكورين فى سورتى الانفطار والانشقاق ؟

قلت : إن المتأمل فى ترتيب السور التى تحدثت عن هذه المشاهد وأعنى بها (إذا الشمس كورت) و(إذا السماء انفطرت) و (إذا السماء انشقت) يجدها مرتبة فى المصحف على نحو ما ذكرنا ، ولعل فى ترتيبها على هذا النحو ما يشير إلى ترتيب أحداثها بمعنى أن تكوير الشمس حاصل قبل انفطار السماء وانشقاقها ، ولعل فى

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الطبرى / جـ٣٠/ صـ٤١ / دار المعرفة. بيروت.

(٣) الحديث سبق تخريجة.

حديث أُبيٍّ بن كعب ما يشير إلى هذا حيث ورد فيه أن ما يحدث للشمس يحدث والناس فى أسواقهم ، وكذلك فى حديث ابن عمر الذى رواه الحاكم[١] فعن عبدالله ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى العين فليقرأ (إذا الشمس كورت) و (إذ السماء انفطرت) و (إذا السماء انشقت). فهذا الترتيب يوحى بأن التكوير يقع أولا. وقال بعضهم أن التكوير يكون عند النفخة الأولى[٢].

وأما ما يحدث للشمس بعد تكويرها فقد كشف عنه ابن الجوزى فى تفسيره بقوله : قال المفسرون : تجمع الشمس بعضها على بعض ثم تلف ويرمى بها فى البحر ، وقيل فى النار ، وقيل تعاد إلى ما خلقت منه[٣].

وقد ورد فى السنة ما يؤيد إلقاءها فى النار بعد تكويرها فقد أخرج أبو يعلى[٤] فى مسنده عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : الشمس والقمر نوران عقيران فى النار.

وذكر البخارى[٥] فى صحيحة عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : الشمس والقمر مكوارن يوم القيامة.

فقد دلت راوية أبو يعلى على أن الشمس والقمر بعد تكويرهما يكونان فى النار يوم القيامة ، وفى ذلك من الحكمة ما لا يعلمه إلا الله ، وإن جازلنا أن نقول فإن

---

(١) الحديث اخرجة الحاكم من مستدركة / كتاب التفسير (تفسير اذا الشمس كورت) / جـ٤ / صـ٦٢٠ / برقم ٨٧١٩ / وقال الحاكم هذا حديث صحيح ولم يخرجاه.

(٢) القيامة رأى العين صـ٤٧.

(٣) زاد المسير / جـ٨/ صـ٢٠٨.

(٤) اخرجه أبو يعلى فى مسنده / جـ٧ / صـ١٤٨ برقم ٤١١٦. قال الهيثمى فى مجمع الزوائد فيه ضعفاء قد وثقوا راجع المجمع / جـ١٠ / صـ٣٩٠ / دار الريان للتراث ودار الكتاب العربى بيروت.

(٥) صحيح البخارى / كتاب بدا الخلق / باب صفة الشمس والقمر بحسبان / جـ٣ / صـ١١٧١ برقم ٣٠٢٨.

إلقاءهما فى النار ليراهما من عبدهما فى الدنيا من دون الله فيكون أدخل فى تبكيتهم وحسرتهم قال تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون. لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون. لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون. إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون....)[١]

قال الزمخشرى : ويروى فى الشمس والنجوم أنها تطرح فى جهنم ليراها من عَبَدهَا[٢]. ثم ساق الآية السابقة.

وقال البقاعى : التكوير كناية عن رفعها أو إلقائها فى جهنم زيادة فى عذاب أهلها ولا سيما عبدتها[٣].

وبناء على ما سبق فإن الشمس تكور وتجمع أشعتها وتلف وتطوى كما يطوى السجل وقد كانت من أعظم الآيات وأجل النعم الكونية.

---

(١) سورة الانبياء / ٩٨ الى ١٠١.

(٢) تفسير الكشاف / جـ٦ / صـ٣٢١.

(٣) نظم الدرر للبقاعى / جـ٨ / صـ٣٣٦ / تحقيق عبد الرزاق غالب المهدى / دار الكتاب العلمية بيروت.

المشهد الثانى

انكدار النجوم

قال تعالى: ﴿وإذا النجوم انكدرت﴾[١]

لما ذكر سبحانه فى الآية السابقة ما يحدث للشمس من تكوير وانطماس لنورها مع عظم جرمها وفائدتها ثنى سبحانه بذكر ما هو دونها من العوالم العلوية وهى النجوم وما يحدث لها من انكدار، وانفراط عقدها بعد تماسكها قال تعالى (وإذا النجوم انكدرت).

وقد اختلف المفسرون فى المراد من انكدار النجوم الوارد فيِ الآية على أقوال نوردها على النحو التالى :-

القول الأول : أن انكدار النجوم معناه تساقطها وتناثرها[٢] كما قال تعالى (وإذا الكواكب انتثرت) ، قاله الربيع بن خيثم ومجاهد وأبو صالح والضحاك[٣]. وعن قتاده قال : تناثرت وتهافتت[٤].

أورد القرطبى[٥] فى تفسيره عن الضحاك عن ابن عباس قال : تساقطت وذلك أنها قناديل معلقه بين السماء والأرض بسلاسل من نور وتلك السلاسل بأيدى ملائكة من نور فإذا جاءت النفخة الأولى مات من فى الأرض ومن فى السماوات فتناثرت تلك الكواكب وتساقطت السلاسل من أيدى الملائكة لأنه مات من كان يمسكها.

---

(١) سورة التكوير /٢.

(٢) غرائب القران للنيسابورى / جـ٦ / صـ٤٥٢ / دار الكتب العلمية بيروت.

(٣) تفسير ابن كثير / جـ٤ / صـ٦١١.

(٤) الطبرى / جـ٣٠ / صـ٤٣.

(٥) القرطبى / جـ١٩ / صـ١٩٨.

القول الثانى : أن المراد بانكدارها انصبابها ،لأن أصل الانكدار الانصباب[١]. قال أبو عبيد : انصبت كما تنصب العقاب غذا انكسرت[٢]. قال العجاج يصف صقرا:

أبصر خربان فضاء فانكدر

تقضى البازى إذا البازى كسر

القول الثالث : أن يكون انكدارها بمعنى طمس آثارها. روى الطبرى عن ابن عباس قال : انكدرت تغيرت فلم يبق لها ضوء لزوالها عن أماكنها[٣].

هذه هى جمله أقوال المفسرين فى المراد من انكدار النجوم الوارد فى الآية ، وكلها كما ترى أقوال متقاربة لا تعارض بينها ، وإن كان أظهرها فى المراد هو القول الثالث ، وجميعها تهدف إلى معنى واحد هو انتهاء مهمة هذه النجوم وتسخيرها لمصلحة بنىآدم ، حيث ينطمس نورها وتتساقط ، وسقوطها أشبه بانفراط عقدها من النظام الذى يمسكها ، الأمر الذى يستلزم تناثرها كتناثر الكواكب فى قوله (وإذا الكواكب انتثرت)[٤] لأن الشيىء إذا سقط تفرق وتناثر ما دام قابلا لذلك ، خاصة إذا سقط من علو.

أما عن النجوم التى سيصيبها الانكدار أهى القريبة منا أم البعيدة التى لا نراها ولا يعلم عددها إلا الله تعالى ، فالظاهر جنس النجوم ، على اعتبار أن (ال) فى النجوم لافادة الجنس ولعل الحكمة من ذلك هى أخذ العبرة والعظة ، والتذكير بأهوال هذا اليوم المهيب ليعد كل امرء عدته كما قال تعالى (لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر)[٥].

(١(النيسابورى / جـ٦ / صـ٤٥١.

(٢) القرطبى / جـ١٩ / صـ١٩٧.

(٣) الطبرى / جـ٣٠ / صـ٤٣.

(٤) سورة الانفطار / ٢.

(٥) سورة المدثر / ٣٧.

لكن لماذا خصت النجوم فى الآية بالانكدار ؟

ومع أننى فى هذا البحث حريص على ألا أحمل آيات القرآن على النظريات العلمية التى تكتشف لأنها غير ثابتة تخطىء أحيانا وتصيب أخرى والقرآن حق ثابت يحمل آية صدقة فى ذاته مع هذا الحرص فإن التعبير القرآنى فى قوله (وإذ النجوم انكدرت) وقوله (وإذ النجوم طمست)[١]. يحملنى قسرًا على النظر فيما قاله علماء الفلك المتخصصون.

يقول الدكتور عدنان الشريف[٢] : فرّق القرآن الكريم تفريقا واضحا بين الكوكب ، والنجم ، والقمر ، إذ يطلق اسم النجم على كل جرم سماوى يستمد طاقته ونوره من ذاته كالشمس ، ويطلق اسم القمر على كل جرم يتبع فى نظام دورانه إلى كوكب معين كما نلاحظ فى الآيات التالية : قال تعالى (هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب)[٣] وقوله:(وإذا النجوم طمست)[٤] وقوله (وإذا النجوم انكدرت) وقوله (وإذا الكواكب انتثرت)[٥].

فكون النجوم خصت بالانكدار والذى من معانيه الكدرة والظلمة والطمس ، للإشارة إلى أنها مصدر للضياء الأصلى فى السماء وأن ضياء الكواكب مكتسب من ضياء هذه النجوم ، ولذا خص النجوم بالانكدار ، والكواكب تابعة لها.

ويقول الأستاذ حنفى أحمد فى قوله (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب)[٦] فيه أشارة إلى أن الكواكب تزين بهذا الضوء المستمد من النجوم لأنها عبارة عن أجرام

---

(١) سورة المرسلات / ٨.

(٢) من علم الفلك القرآنى للدكتور عدنان الشريف / جـ٧٠. دار العلم للملايين ١٩٩١.

(٣) سورة يونس / ٥١.

(٤) سورة المرسلات / ٨.

(٥) سورة الانفطار / ٢.

(٦) سورة الصافات / ٧ .

مظلمة تضيىء بضياء غيرها ، أى بضياء النجوم[١] التى زين الله السماء بها وجعلها رجوماً للشياطين كما قال تعالى: (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين)[٢].

وعندما يريد الله فناء العالم وقيام الساعة تنكدر هذه النجوم ويطمس ضوؤها وتتساقط تلك الكواكب وتنتهى مهمتها فى هذه الدنيا.

(١) التفسير العلمى للايات الكونية / صـ١٥٩ . دار المعارف مصر.

(٢) سورة الملك / ٥.

المشهد الثالث

تسيير الجبال

قال تعالى (وإذا الجبال سيرت)[١]

لما بدأ سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة بذكر أعلام السماء لأنها أشهر وأعم تخويفاً وإرهاباً ، وذكر منها اثنين هما أشهر ما فيها وأعمها نفعاً هما الشمس والنجوم أتبع ذلك بذكر أعلام الأرض فقال مكرراً للظرف لمزيد الاعتناء بالتهويل والتخويف[٢] (وإذا الجبال سيرت) أى أن هذه الجبال التى هى من معالم الأرض وأصلبها كالنجوم التى هى من معالم السماء وأزينها يسيرها الله تعالى بقدرته إيذاناً بإنتهاء مهمتها فى هذا الكون .

هذه هى الجبال الرواسى فى أوج شموخها ، وقوة رسوخها وصلابة أحجارها ، وشدة تماسكها تنتهى مهمة تسخيرها فتصير كثيباً مهيلاً كما قال تعالى (يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلا)[٣] وقد كانت قبل أن يأتى عليها أمر الله خاضعة مسبحة مع الكون لخالقها وموجدها قال تعالى (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً)[٤] وقال تعالى (وسخرنا مع داوود الجبل يسبحن والطير وكنا فاعلين)[٥] تلك هى الجبال التى استجابت لخالقها فسجدت مع الكون وانقادت قال تعالى (ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب)[٦].

---

(١) سورة التكوير/٣.

(٢) نظم الدرر/جـ٨/ صـ٣٣٦.

(٣) سورة المزمل /١٤.

(٤) سورة الإسراء/٤٤.

(٥) سورة الأنبياء/٧٩.

(٦) سورة الحج/١٨.

قال أبو العالية : ما فى السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلا يقع ساجداً حين يغيب ثم لا ينصرف حتى يؤذن له فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعه ، وأما الجبال والشجر فسجدوهما بفيء ظلالهما عن اليمين والشمائل[١]

تلك هى الجبال التى ضمت الإنسان إلى أحضانها فآوته وصارت له نفعاً وحصناً يحميه من الحر والقر قال تعالى(والله جعل لكم مما خلق ظلالاً وجعل لكم من الجبال أكناناً وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون)[٢]

تلك هى الجبال التى تغار على عقيدتها ووحدانية خالقها قال تعالى: (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إداً٠ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً٠أن دعو للرحمن ولداً. وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً. أن كل من فى السموات والأرض إلا آت الرحمن عبداً)[٣]

قال ابن عباس : إن الشرك فزعت منه السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين وكادت أن تزول منه لعظمة الله[٤].

تلك هى الجبال أثر من آثار قدرة الله، وحجة واضحة دالة على سلطانه وعظمته فى كتاب الكون المنظور فلينظر الإنسان إليها متأملاً عظمة خالقها وموجدها قال تعالى: (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت. وإلى السماء كيف رفعت. وإلى الجبال كيف نصبت. وإلى الأرض كيف سطحت)[٥]

---

(١) تفسير ابن كثير / جـ٣ / صـ٢٨١

(٢) سورة النمل / ٨١.

(٣) سورة مريم/ من الآية ٨٨ إلى الآية ٩٣.

(٤) تفسير ابن كثير /جـ٣ / صـ ١٧٦.

(٥) سورة الغاشية / من الآية ١٧ إلى الآية ٢٠.

تلك هى الجبال بألوانها وأشكالها شاهدة على قدرة صانعها وعظمة مبدعها قال تعالى (ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود)[١].

تلك هى الجبال الراسيات المثبتات للأرض حتى لا تميد بأهلها وتضطرب قال تعالى (خلق السماوات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماءً فأنبتنا فيها من كل زوج كريم هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين)[٢] وقال تعالى (ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً)[٣] وقال تعالى (ألم نجعل الأرض مهاداً . أحياءً وأمواتاً . وجعلنا فيها رواسى شامخات وأسقيناكم ماءً فراتا)[٤].

يقول ابن كثير فى قوله (وجعل لها رواسى)[٥] أى جبالاً شامخة ترسى الأرض وتثبتها لئلا تميد بهم[٦].

ويقول النيسابورى فى قوله (والجبال أوتاداً) الأوتاد ما يشد به أركان الخيمة ، شبهت الجبال الراسيات بها لأنها تحفظ الأرض أن تميد بما عليها[٧].

ويفسر العلم الحديث هذه الأهمية للجبال فيقول الدكتور منصور محمد حسب النبى: فى تشبيه الجبال بالأوتاد إعجاز علمى رائع فالجبال فيما يتبادر إلى الذهن تشبه الأوتاد من ناحية البروز عن سطح الأرض ومن ناحية الرسوخ فيها فلقد اتضح

---

(١) سورة فاطر/٢٧.

(٢) سورة لقمان /١٠، ١١.

(٣) سورة عم /٦، ٧.

(٤) سورة المرسلات /٢٥ ، ٢٧.

(٥) سورة النمل / ٦١.

(٦) تفسير بن كثير /جـ٣ / صـ٤٨٨.

(٧) تفسير النيسابورى/ جـ٦ / صـ٤٣٠.

حديثاً أن للجبال جذوراً تمتد إلى الأغوار العميقة إلى عمق يصل خمسة وسبعون كيلو متراً[١].

ويقول الدكتور مصطفى مسلم: تقرر الحقيقة العلمية القاطعة أن توزيع الجبال على الكرة الأرضية إنما قصد به حفظها من أن تميد إلى الشمس أو تحيد عنها ، وأنها فعلاً السبب الرئيسى لحفظ توازن الأرض ، فكانت الجبال هى أوتاد الأرض تحفظها فى مكانها وتحفظ عليها حركتها[٢].

تلك هى مهمة الجبال وأهميتها كما بينها القرآن الكريم فإذا أراد الله فناء العالم وقيام الساعة ، أتى عليها أمر الله تعالى فدكها والأرض دكة واحدة ، فتنفصل ذراتها المتماسكة ، وتتهاوى كالكثيب المهيل ، ثم يأمرها الله بالسير فتستجيب لأمره وتتقاذفها الرياح هنا وهناك كأنها السحاب فى السير والهباء فى النثر لتستوى الأرض فتكون قاعاً صفصفا لا ارتفاع فيها ولا انخفاض قال تعالى (وإذا الجبال سيرت).

والتسيير فى اللغة يراد به الذهاب ، وأصله من سار يسير سيراً ومسيراً يعنى ذهب.

قال الراغب[٣]: التسيير ضربان أحدهما : بالأمر والاختيار والإرادة كما فى قوله تعالى (هو الذى يسيركم فى البر والبحر)[٤] ، والثانى : يكون بالقهر والتسخير كتسخير الجبال فى قوله تعالى (وإذا الجبال سيرت) وقوله (وسيرت الجبال فكانت سرابا)[٥].

---

(١) الكون والإعجاز العلمى فى القرآن الكريم للدكتور منصور حسب النبى /صـ١٨٦ دار الفكر.

(٢) مباحث فى إعجاز القرآن للدكتور مصطفى مسلم / صـ٢٠٣ دار المسلم للنشر والتوزيع.

(٣) المفردات للراغب /صـ٢٢٣ / دار المعرفة.

(٤) سورة يونس /٢٢.

(٥) سورة عم /٢٠.

فالآيات تتحدث عن مشهد مروع وحدث مفزع يصيب الجبال فيذهب بمهمتها وينهى تسخيرها للخلائق ، ويزلزل ثباتها ، وتماسكها ، واستقرارها فترتجف الأرض وتضطرب ، وتتهاوى الجبال وتنهال كالرمل السائل قال تعالى (يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلا)[١].

يقول ابن كثير: أى تصير ككثبان الرمل بعدما كانت حجارة صماء ، ثم تنسف فلا يبقى منها شيء إلا ذهب حتى تصير الأرض قاعاً صفصفا لا ترى فيها عوجا أى واديا ولا أمتا أى رابية[٢].

وقال بعضهم: إن المراد بتسيير الجبال إذهابها عن أماكنها بالرجفة الحاصلة لا فى الجو ، فإن ذلك بعد النفخة الثانية[٣].

وأول الأحداث التى تصيب الجبال هو دكها بالرجفة والزلزلة الحاصلة للأرض عند خراب العالم بالنفخة الأولى كما قال تعالى (فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة . وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة . فيومئذ وقعت الواقعة)[٤]

يقول الألوسى: المراد من النفخة الأولى التى عندها خراب العالم كما قال ابن عباس . وقال ابن المسيب ومقاتل هى النفخة الآخرة ، والأول أولى لأنه المناسب لما بعد (وحملت الأرض والجبال..) رفعتا من أحيازهما بمجرد القدرة من غير واسطة مخلوق أو بتوسط نحو ريح أوملك (فدكتا دكة واحدة) فضربت إثر رفعهما بعضها ببعض ضربة واحدة حتى تتفتت وترجع كما قال الله (كثيباً مهيلا)[٥].

---

(١) سورة المزمل /١٤.

(٢) تفسير ابن كثير /جـ٤/صـ٥٦٢.

(٣) تفسير أبو السعود /جـ٩/صـ١١٤ دار إحياء التراث العربى بيروت.

(٤) سورة الحاقة /١٣، ١٤ ، ١٥.

(٥) تفسير الألوسى /جـ٢٩/صـ٤٤/ دار التراث العربى بيروت.

ومما يدل على أن تفتيت الجبال وبسها يكون برج الأرض رجاً شديداً تزلزلها وتدكها دكا قوله تعالى (إذا رجت الأرض رجا . وبست الجبال بسا . فكانت هباءً منبثا)[١].

يقول أبو السعود[٢]: (إذا رجت الأرض رجا) أى زلزلت زلزالاً شديداً بحيث ينهدم ما فوقها من بناء وجبل (وبست الجبال بسا) أى فتتت حتى صارت مثل السويق من بس السويق بمعنى إزالته ، أو سيقت وسيرت من أماكنها من بس الغنم إذا ساقها كما قال تعالى (وسيرت الجبال فكانت سرابا)[٣].

وبعد زوال الجبال عن أماكنها بالرجفة الحاصلة والدكة الواقعة وصيرورتها كالكثيب المهيل متفرقة الأجزاء ، مفتتة الذرات ، فى أماكنها يبسها الله تعالى بقدرته بساً أى يسوقها من أماكنها ويسيرها كما قال تعالى (وإذا الجبال سيرت) وقال تعالى (يوم تمور السماء موراً . وتسير الجبال سيراً)[٤].

يقول الخازن: الحكمة من مور السماء وسير الجبال الإنذار والإعلام بأنه لا رجوع ولا عود إلى الدنيا ، لأن الأرض والسماء وما بينهما من الجبال والبحار وغير ذلك إنما خلقت لعمارة الدنيا وانتفاع بنى آدم بذلك ، فلم يبق لهم عود إليها ، وذلك لخراب العالم وعمارة الآخرة[٥].

وقال الألوسى: سيرت الجبال أى فى الجو على هيئتها بعد تفتتها وقلعها من مقارها[٦].

---

(١) سورة الواقعة /٤، ٥ ، ٦.

(٢) أبو السعود/جـ٨/صـ١٨٨ / ١٨٩.

(٣) سورة عم /٢.

(٤) سورة الطور/ ٩ ، ١٠.

(٥) تفسير الخازن /جـ٦/ صـ٢٤٩.

(٦) الألوسى:/جـ٣٠ / صـ١٣.

وبعد أن يسير الله الجبال في الجو بقدرته على نحو ما ذكر الألوسى ينسفها نسفاً فتتطاير فى الهواء هنا وهناك فتصير كالهباء المنبث ، الذى ذرته الريح وبثته كما قال عكرمة[١].

قال أبو حيان: (وإذا الجبال نسفت) فرقتها الريح وذلك بعد التسيير ، وقيل : ذلك جعلها هباءً [٢].

وقال الألوسى: جعلت كالحب الذى ينسف بالمنسف[٣].

وبعد نسفها وتذريتها فى الهواء تصير كالعهن المنفوش فى تخلل ذراتها وانتفاشها، وكالهباء المنثور المتطاير الذى لا وزن له ولا ثبات قال تعالى (يوم تكون السماء كالمهل. وتكون الجبال كالعهن)[٤] وقال (وتكون الجبال كالعهن المنفوش)[٥] ، والنفش : هوفك الصوف بعضه عن بعض كما قال الرازى[٦].

وهذا الهباء المنثور المتطاير يتراكم بعضه فوق بعض فيتراء للناظر إليه من بعيد كأنه السراب كما قال تعالى (وسيرت الجبال فكانت سرابا).

يقول الطبرى : صارت الجبال بعد نسفها هباءً منبثا لعين الناظر كالسراب الذى يظن من يراه من بُعد أنه ماء وهو فى الحقيقة هباء[٧].

ويقول الألوسى فى قوله (فكانت سرابا) أى فصارت بعد تسييرها مثل السراب فترى بعد تفتتها وارتفاعها فى الهواء كأنها جبال وليست بجبال بل غبار غليظ متراكم يُرى من بعيد كأنه جبل كالسراب يرى كأنه بحر مثلا وليس به ، فالكلام

---

(١) ابن كثير /جـ٤/صـ٣٦٠.

(٢) البحر المحيط//جـ٨ /٤٠٥.

(٣) تفسير الالوسى / جـ٢٩ / صـ١٧٢.

(٤) سورة المعارج / ٨ ، ٩.

(٥) سورة القارعة / ٥.

(٦) تفسير الرازى / جـ٣٢ / صـ٦٩ / دار المعرفة. بيروت.

(٧) تفسير الطبرى / جـ٣٠ / صـ٧.

على التشبية البليغ ، والجامع أن كلا من الجبال والسراب يُرى على شكل شيىء وليس هو بذلك الشيىء ، وجوز أن يكون وجه الشبة التخلل إذ تكون بعد تسييرها غبارا منتشرا[١] كما قال (وبست الجبال بسا. فكانت هباء منبثا)[٢].

هذه هى المشاهد التى تحدث للجبال يوم القيامة حاولت جاهدا بفضل الله أن أوفق بين الآيات التى جاءت تصور مشاهدها المروعة فتذهب بثباتها ورسوخها وتماسكها واستقرارها تتقاذفها الرياح هنا وهناك ، واذا كان هذا هو حال الجبال مع عظمها وصلابتها فكيف بحال الإنسان الضعيف ، نسأل الله السلامة العافية.

---

(١) الالوسى / جـ ٣٠ / صـ ١٣.

(٢) الواقعة / ٥.

المشهد الرابع

تعطيل العشار

قال تعالى ﴿وإذا العشار عطلت﴾[١]

لما ذكر سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة ما يحدث لأعلام الجمادات العلوية والسفلية من مشاهد مروعة ، وأحداث مزلزلة ، أتبعه فى هذه الآية ذكر ما يحدث لأعلام الحيوان النافع من تعطيل وإهمال قال تعالى (وإذا العشار عطلت).

إنه مشهد يتماشى مع ما ينتاب الناس فيه من الفزع والهول الشديد فيشغلهم ذلك عن أعز وأغلب ما لديهم من كرائم أموالهم التى كانوا يتعلقون بها فى الدنيا.

وقد اختلف المفسرون فى المراد من (العشار) وكيفية تعطيلها على أقوال:-

القول الأول: أنها النوق الحوامل[٢]. التى أتى على حملها عشرة أشهر ثم هو اسمها إلى أن تضع لتمام السنة وجمعها عشار[٣] فالكلام على حقيقته.

وأما المراد من تعطيل العشار على هذا القول هو أن تترك مهملة لا راعى لها ولا طالب ، وذلك من شدة الهول النازل بأهلها.

قال أبَى ابن كعب (وإذا العشار عطلت) أهملها أهلها[٤].

وعن الربيع بن خيثم قال : خلا منها أهلها فلم تحلب ولم تصر وتخلى عنها أربابها[٥].

وقيل تعطيلها من إرسال الفحل عليها٦. لأن الانقلاب الحاصل للكون أفزع كل الخلائق وأذهلها حتى الحيوانات أصابها من الهلع والفزع ما صرفها عن إناثها.

---

(١) سورة التكوير /٤.

(٢) تفسير النيسابورى /جـ٦ /صـ٤٥٢.

(٣) تفسير الرازى / جـ٣١ / صـ ٦٢.

(٤) الطبرى /جـ٣٠ / صـ٤٢.

(٥) المصدر السابق.

(٦) تفسير الألوسى /جـ٣٠/صـ٥١.

قال الألوسى: وذلك إذا كان قبيل قيام القيامة لاشتغال أهلها بما عـراهم ممـا يكون إذا ذاك[١].

وقال ابن عاشور: وعلى هذا الوجه يكون هذا من أشراط الساعة فـى الأرض فيناسب قوله (وإذا الوحوش حشرت)[٢].

وقيل إن هذا التعطيل للعشار حاصل يوم القيامة بعد حشر الناس من قبـورهم وقد حشرت معهم الوحوش والأنعام ، فلا يعبأون بها ، لأنشغالهم بأنفسـهم ومـانزل بهم فى هذا اليوم المهيب.

يقول الألوسى: إذا قاموا من القبور وشاهدوا الوحـوش والأنعـام والـدواب محشورة ورأوا عشارهم التى كانت كرائم أموالهم فيها انشغلوا عنها بأحوالهم[٣].

القول الثانى: أن الكلام فى الآية ليس على حقيقتـه وإنمـا علـى سـبيل التمثيـل ، والقائلون بذلك اختلفوا فى المراد من العشار وتعطيلها:

١- قال القرطبى: الكلام فى الآية على التمثيل ، إذ لا عشار يوم القيامة ، ولكن أراد المثل ، بحيث لو كان للرجل ناقة عشراء لعطلها واشتغل بنفسـه مـن هول يوم القيامة[٤].

٢- وقيل هو مستعار للسِّحب المحملة بالمطر حيث شـبه السـحابة المتوقـع مطرها بالناقة العشراء القريب وضع حملها.

٣- وتعطيلها هو عدم إمطارها. والعرب تشبه السحاب بالحامل لكونـه حـاملاً للماء[٥] قال تعالى (فالحاملات وقرا)[٦].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) التحرير والتنوير / جـ١٥/صـ١٤٣.

(٣) الألوسى / جـ٣٠/صـ٥١.

(٤) تفسير القرطبى /جـ١٩/صـ١٩٨ بتصرف.

(٥) المفردات للراغب / جـ١٣٩ ، والقرطبى /جـ١٩/صـ١٩٩.

(٦) سورة الذاريات /٢.

٤- قال ابن عاشور: وعلى هذا الوجه فذلك من أشراط الساعة العلوية فيناسب تكوير الشمس ، وانكدار النجوم[١].

٥- وقال الألوسي: فى الكلام استعارة لطيفة مع المناسبة التامة بينه وبين ما قبله فإن السحب تنعقد على رؤس الجبال وترى عندها ، وتعطيلها مجاز عن عدم ارتقاب مطرها لأنهم فى شغل عنه. وقيل: عن عدم إمطارها[٢].

٦- وقيل المراد بالعشار الديار تعطل فلا تسكن[٣].

٧- وقيل الأرض التى تعشر زرعها تعطل فلا تزرع[٤].

والمتأمل فى هذه الأقوال يجدها حاصلة قبيل قيام الساعة إلا أن أظهرها فى المراد من العشار وتعطيلها فى الآية هو القول الأول القائل بأن المراد من العشار النوق الحوامل والتى هى خيار الإبل عند العرب ، قد انشغلوا عنها وعن كفايتها والانتفاع بها لما نزل بهم من الأهوال العظام والخطوب الجسام ، ولا شك أن الإبل هى أفضل أموال العرب خاصة العشار منها فهم لا يفارقونها ، لكن عند وقوع هذه الأهوال يهملونها بل يتركون كل غال ورخيص ، قد انشغلوا بأنفسهم وما نزل بهم. وهذا ما ذهب إليه الرازى[٥] والقرطبى[٦] ، وغيرهما ، مع الأخذ فى الاعتبار أننى وإن رجحت ما ذهبت إليه إلا أن هذا لا يمنع من دخول كل عشار من الحيوان النافع التى يقتنيها أهلها ويعتزون بها فى الآية الكريمة ، وهذا ما أشار إليه الطبرى بقوله: يقول تعالى

---

(١) التحرير والتنوير /جـ١٥/صـ١٤٣.

(٢) تفسير الألوسى / جـ٣٠/ صـ٥١.

(٣) التحرير والتنوير /جـ١٥/صـ١٤٣.

(٤) التحرير والتنوير/جـ١٥/صـ١٤٣/دار سحنون للنشر والتوزيع.

(٥) تفسير الرازى /جـ٣١/صـ٦٢.

(٦) تفسير القرطبى /جـ١٩/صـ١٩٨ ، والنيسابورى /جـ٦/صـ٤٥٢.

ذكره: وإذا هذه الحوامل التى يتنافس أهلها فيها أهملت فتركت من شدة الهول النازل بهم فكيف بغيرها[١]. حيث أطلق الحوامل ولم يقيدها بالنوق .

فإن قلت: إذا كان أظهر الأقوال فى المراد من العشار أنها النوق الحوامل فلم خصت الإبل بالذكر فى الآية؟

قلت : إن تخصيصها بالذكر فى الآية لكونها أعز أموال العرب خاصة العشار منها، ولكثرة منافعها ، فضلاً عما فيها من العجائب فهى رغم قوتها إلا أن فيها من اللطافة والطاعة ما يسخرها لخدمة الإنسان ، ثم إن العرب قد ألفوها أكثر من غيرها فى الصحراء ، بحيث لو نظر أحدهم يميناً وشمالاً وقع بصره عليها وعلى تلك الإبل والجبال الرواسى من أجل هذا حث الله عباده على النظر والتأمل فى عظيم قدرته فى هذه المخلوقات قال تعالى (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت. وإلى السماء كيف رفعت. وإلى الجبال كيف نصبت. وإلى الأرض كيف سطحت)[٢].

قال البقاعى رحمه الله في بيان وجه تخصيص الإبل دون غيرها بالذكر فى الآية الكريمة: لأنها من أعلام الحيوان النافع الذى هو أعز أموال العرب ، وأغلبها ، وأنفسها عندهم لأنها تجمع اللحم والظهر واللبن والوبر [٣].

وقد بين القران فوائد الحيوان النافع عموما والإبل خصوصا فى قولة تعالى (والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون. ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون. وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغية إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم .والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لاتعلمون)[٤] وفى قوله تعالى (والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا

---

(١) الطبرى /جـ٣٠/صـ٤٢.

(٢) سورة الغاشية /١٧/١٨/١٩/٢٠.

(٣) نظم الدرر / جـ٨ / صـ٣٣٦-٣٣٧.

(٤) سورة النحل / ٥.

إلى حين)[١] وفى قوله تعالى (وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين)[٢] وفى قوله تعالى (وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون. وعليها وعلى الفلك تحملون)[٣] وفى قوله تعالى (أولم يرو أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون. وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون. ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون)[٤].

يقول ابن كثير فى آية المؤمنون : يذكر تعالى ما جعل لخلقه فى الأنعام من المنافع وذلك أنهم يشربون من ألبانها الخارجة من بين فرث ودم ويأكلون من حملانها ويلبسون من أصوافها وأوبارها وأشعارها ويركبون ظهورها ، ويحملون الأحمال الثقال عليها إلى البلاد النائية[٥].

---

(١) سورة النحل /٨٠.

(٢) سورة النحل / ٦٦.

(٣) سورة المؤمنون / ٢١ ، ٢٢.

(٤) سورة يس /٧١. ٧٢ ، ٧٣.

(٥) ابن كثير / جـ٣ / صـ٣٢٤.

المشهد الخامس

حشر الوحوش

قال تعالى ﴿وإذا الوحوش حشرت﴾[١]

لما ذكر سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة تلك المشاهد المروعة والكوارث المذهلة التى تصيب العوالم العلوية والسفلية ، وكان وقوعها مؤذن بحدوث امر جلل بينه فى هذه الآية أنه الحشر ودل على عمومه بذكر ما تظن النفس إهماله وعدم الاكتراث به والالتفات إليه وهو الوحوش المختلفة فى طبائعها ونفورها فما ظنك بغيرها قال تعالى (وإذا الوحوش حشرت) .

وأصل الحشر فى اللغة : الجمع والضم. يقال حشرهم وساقهم[٢] ، ومنه قوله (والطير محشورة كل له أواب)[٣] وقوله (وإذا الوحوش حشرت) وقوله (وحشر لسليمان جنوده من الجن والأنس والطير فهم يوزعون)[٤].

ويأتى الحشر بمعنى البعث. يقال : حشر الله الخلق : بعثهم من مضاجعهم وساقهم[٥] ومنه قوله تعالى (ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا)[٦] ويأتى كذلك بمعنى الموت والهلاك ، يقال : حشر الجدب الماشية ونحوها أى: أهلكها[٧]. ويقال إذا اجتاحت السنه الناس وأموالهم ، حشرتهم السنه: أى أماتتهم[٨].

---

(١) سورة التكوير /٥.

(٢) المعجم الوسيط /جـ١ / صـ٧٥ ، المفردات / صـ١٢٧.

(٣) سورة ص / ١٩.

(٤) سورة النمل /١٧.

(٥) المعجم الوسيط / جـ١ / صـ٧٥.

(٦) سورة النساء / ١٧٢.

(٧) المعجم الوسيط / جـ١ / صـ٧٥.

(٨) غرائب القرآن للنيسابورى جـ٦ / صـ٤٥٣.

وجمهور المفسرين على أن المراد بالوحوش : ما لا يستأنس من دواب البر[١]. وقيل : ما يعم البهائم مطلقا[٢].

هذا وقد أختلفوا فى المراد من حشر الوحوش الوارد فى الآية على قولين نوردهما على النحو التالى :-

القول الأول : أن المراد جمعها ، وهذا الجمع يراد به أحد معان ثلاث:

الأول : جمعها بمعنى سوقها من أوكارها وأحجارها ذاهلة من شدة الفزع ، وذلك قبل قيام الساعة .

يقول الألوسى : (حشرت) جمعت من كل جانب قبيل النفخة الأولى[٣].

فحشر الوحوش هو جمعها لاستيلاء الرعب عليها ، وخروجها من أحجارها وأوكارها ، ونسيانها ما كانت تخافه ، فتفر منه ، فتحشر هائمة لا يخش جميعها سطوة الإنسان[٤].

الثانى : جمعها بضم بعضها ببعض واختلاطها ، وسوقها إلى أكنانها حيث يدفعها البلاء النازل إلى الفرار وطلب النجاة مما تراه من أحداث القيامة فترتد عن مسارحها مسرعة إلى حيث تظن عنده النجاة والاختفاء من الخطر المحدق، فتأتى من كل وجه ، يلوذ بعضها ببعض ، قد أذهب الهول بكل ما فيها من نوازع الشر والعدوان ، وذلك قبيل قيام الساعة .

عن أبى بن كعب فى قوله (وإذا الوحوش حشرت) قال : اختلطت. وهذا المعنى قريب من سابقة.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) تفسير الالوسى / جـ٣٠ / صـ٥١.

(٣) تفسير الالوسى / جـ٣٠/ صـ٥١.

(٤) تفسير الطبرى / جـ٣٠ / صـ٤٣ .

أما عن كيفية جمع الله لهذه الوحوش فى آن واحد ، فهذا ليس ببعيد على الله تعالى ، فكما أنه قادر على خلقهم ، فهو قادر على جمعهم قال تعالى (إنما قولنا لشيىء إذ أردناه أن نقول له كن فيكون)[١].

هذا وقد ذكر بعض المفسرين أسبابا يقدرها الله لجمع هذه الوحوش فى مكان واحد.

يقول الألوسى : تخرج نار تفر الناس والانعام منها حتى تجمع[٢].

ويقول ابن عاشور: قد يكون سبب حشرها طوفان يغمر الأرض من فيضان البحار فكلما غمر جزءً من الأرض وحوشها تجتمع فى مكان واحد طالبة النجاة من الهلاك ، ويشعر بهذا عطف (وإذا البحار سجرت) عليه[٣].

ومهما كانت الأسباب فالله قادر على جمع هذه الوحوش وحشرها ، وهذا الجمع لا يتوقف على هذا السبب أو ذاك قال تعالى (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون)[٤] هذا مع الأخذ فى الأعتبار أن لهذه المشاهد التى تحدثت عنها السورة وغيرها الأثر البين فى حشر هذه الوحوش وجمعها كما أشار إلى ذلك البقاعى[٥] ، والألوسى[٦] ، وابن عاشور[٧] ، وغيرهم من المفسرين.

الثالث : أن يكون جمع هذه الوحوش بالبعث ، وسوقها للحساب والجزاء حتى يقضى بينها كما يقضى بين العباد ، وذلك بعد النفخة الثانية. قال قتاده :

---

(١) سورة النحل / ٤٠.

(٢) تفسير الالوسى / جـ٣٠ / صـ٥١.

(٣) التحرير والتنوير / جـ١٥ / صـ٤٣.

(٤) سورة يس / ٨٢.

(٥) نظم الدرر للبقاعى / جـ٨ / صـ٣٣٧.

(٦) تفسير الالوسى / جـ٣٠ / صـ٥١.

(٧) التحرير والتنوير / جـ١٥ / صـ١٤٣.

(وإذا الوحوش حشرت) إن هذه الخلائق موافية يوم القيامة ، فيقضى الله فيها ما شاء[١].

وعنه قال : يحشر كل شيىء للقصاص حتى الذباب[٢].

وروى ذلك عن ابن عباس وجماعة ، وفى رواية عن الحبر تحشر الوحوش حتى يقتص من بعضها لبعض فيقتص من الجماء للقرناء ، وذهب كثير إلى بعث جميع الحيوانات[٣] استنادا لما أخرجه مسلم[٤] فى صحيحة عن أبى هريرة فى هذه الآية قال : قال رسول الله صلى الله علية وسلم : لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء.

لكن الإمام الألوسى لم يمل إلى القول القائل بحشر الوحوش وغيرها بعد النفخة الثانية للقضاء ، وذكر أن حجة الإسلام الغزالى على ذلك.

يقول الألوسى : ومال حجة الإسلام الغزالى وجماعة إلى أنه لا يحشر غير الثقلين لعدم كونه مكلفا ولا أهلا للكرامة بوجه ، وليس فى هذا الباب نص من كتاب أو سنة معول عليها يدل على حشر غيرهما من الوحوش ، وخبر مسلم وإن كان صحيح لكنه لم يخرج مخرج التفسير للآية ، ويجوز أن يكون كناية عن العدل التام ، وإلى هذا أميل ، ولا أجزم بخطأ القائلين بالأول ، لأن لهم ما يصح مستندا فى الجملة والله أعلم[٥].

القول الثانى :أن المراد من حشر الوحوش فى الآية هلاكها وفناؤها بالموت.

---

(١) الطبرى / جـ٣٠ / صـ٤٣.

(٢) نظم الدرر / جـ٨ / صـ٣٣٧.

(٣) الالوسى / جـ٣٠ / صـ٥١.

(٤) الحديث اخرجة مسلم فى صحيحة / كتاب (البر والصلة والاداب) / باب تحريم الظلم / جـ٤ / صـ١٩٩٧ / برقم ٢٥٨٢.

(٥) الالوسى / جـ٣٠ / صـ٥٢

روى عكرمة عن ابن عباس فى قوله (وإذا الوحوش حشرت) قال : حشر البهائم موتها ، وحشر كل شيىء الموت غير الجن والإنس فإنهما يوقفان يوم القيامة[١].

وعن الربيع بن خيثم (وإذا الوحوش حشرت) قال أتى عليها أمرالله[٢].

هذا ما ذكره المفسرون فى هذه الآية ، وأرى أن القول الأول بمعنييه الأول والثانى هو الراجح فى المراد من الآية حيث يحشر الله هذه الوحوش قبيل قيام الساعة أى يجمعها من أوكارها ، وأماكن تواجدها ، يسوقها الفزع قد لاذ بعضها ببعض مجتمعه فى مكان واحد مع شدة نفورها ، تملكها الرعب والخوف من كل جانب. وسبب هذا الترجيح ما يلى :

١- انه مناسب لسياق الآيات التى صورت تلك المشاهد الحاصلة قبل قيام الساعة.

يقول ابن عاشور : ليس هذا الحشر الذى يحشر الناس به للحساب ، بل هذا حشر فى الدنيا وهو المناسب لما عد معه من.الاشراط وروى معناه عن أبَى بن كعب[٣].

٢- ان هذا التصدع الحاصل من العوالم العلوية والسفلية وما يترتب عليه من أهوال عظام وخطوب جسام تجعل الوحوش تفر إلى أوكارها لائذة بها ، أو تخرج منها هائمة على وجوهها طالبة الفرار والنجاة من الهول المحدق بها ، قد ذهب الفزع المحيط بها بكل ما فيها من نوازع الشر والعدوان.

٣- أن حشرها بمعنى بعثها للقصاص إنما يكون بعد النفخة الثانية رغم تحفظ الألوسى عليه ، وميل حجة الاسلام الغزالى إلى عدم حصوله لغير الثقلين كما نقل عنه الألوسى ، لكنه وإن وقع استنادا للأخبار الدالة علية فلا يكون خاصا

---

(١) الطبرى / جـ٣٠ / صـ٤٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) التحرير والتنوير / جـ١٥ / صـ١٤٣.

بهذه الوحوش فحسب ، بل هو عام لجميع الحيوانات كما أشار البقاعى[١] ودلت على ذلك الأخبار التى سقنا طرفا منها آنفا ، لكنه فى هذه الآية التى نحن بصددها خص الوحوش بالذكر دون سائر الحيوانات ، ولعل الحكمة من ذلك هو بيان قدرة الله تعالى على جمع هذه الوحوش ، وهى النافرة المتوحشة ، قد نالها الرعب والفزع فنسيت مخاوفها بعضها من بعض ، كما نسيت فرائسها. فالهول والرعب لا يدعان لهذه الوحوش بقية من طباعها وخصائصها فكيف بالناس فى هذا الهول العصيب[٢]. وفى ذلك تنبيه للغافلين ، وتبصرة للسالكين.

(١) نظم الدرر / جـ٨ / صـ٣٣٧.

(٢) فى ظلال القرآن / جـ١٦ / صـ٣٨٣٩.

المشهد السادس

(تسجير البحار)

قال تعالى (وإذا البحار سجرت)[١]

لما ذكر الله تبارك وتعالى فى الآيات السابقة ما يدل على إمكان الحشر ووقوعه ، أتبعه فى هذه الآية ببيان ما يصيب الناس فيه من الحر الشديد ، والأمر العصيب فقال سبحانه (وإذا البحار سجرت).

وأصل السجر فى اللغة : تهييج النار، وسجر التنور : ملأه وقودا وأحماه ، والمسجور : المتقد[٢] قال تعالى (والبحر المسجور)[٣] هذا وقد اختلف المفسرون فى المراد من تسجير البحار فى الآية الكريمة على أقوال :

القول الأول : أن البحار أوقدت فاشتعلت نارا قاله على وابن عباس ، وبه قال مجاهد والحسن بن مسلم[٤].

ورى الربيع بن أنس عن أبى العالية قال : حدثنا أبى بن كعب (وإذا البحار سجرت) قال : قالت الجن للإنس نحن نأتيكم بالخبر فانطلقوا إلى البحار فإذا هى تتأجج نارا[٥].

وعن ابن عباس فى قوله (إذا الشمس كورت) قال : كور الله الشمس والقمر والنجوم فى البحر فيبعث ريحا دبورا فتنفخه حتى يصير نارا فذلك قوله (وإذا البحار سجرت)[٦].

---

(١) سورة التكوير / ٦.

(٢) المعجم الوسيط / جـ٢ / صـ٤١٧ ، المفردات للراغب / صـ٢٣٠.

(٣) سورة الطور / ٤.

(٤) زاد المسير / جـ٨ / صـ٢٠٨.

(٥) الطبرى / جـ٣٠ / صـ٤٣.

(٦) المصدر السابق.

وأما عن كيفية تسجير هذه البحار وإيقادها بالنار فقد دل عليه الأثر السابق عن ابن عباس ، ونقل الرازى فى تفسيره عن القفال ما يبين ذلك فقال : قال القفال وهذا التأويل – أى تأويل التسجير بمعنى الإيقاد والإشتعال بالنار – يحتمل وجوها :

الأول : أن تكون جهنم فى قعور البحار فهى الآن غير مسجورة لقيام الدنيا فإذا انتهت مدة الدنيا أوصل الله تأثير تلك النيران إلى البحار فصارت بالكلية مسجورة.

الثانى: أن الله يلقى الشمس والقمر والكواكب فى البحار فتصير البحار مسجورة بسبب ذلك. وهذا مؤيد بالأثر الوارد عن ابن عباس رضى الله عنهما.

الثالث: أن يخلق الله فى البحار نارا عظيمة حتى تسخن مياهها. ثم عقب الرازى على هذه الوجوة التى ذكرها القفال فقال :

هذه الوجوة متكلفة لا حاجة إلى شيىء منها لأن القادر على تخريب الدنيا وإقامة القيامة لابد أن يكون قادرا على أن يفعل بالبحار ما شاء من التسخين ومن قلب مياهها نيرانا من غير حاجة منه إلى أن يلقى فيها الشمس والقمر ، أو أن تكون تحتها نار[١].

القول الثانى : أن المراد من تسجير البحار يبوستها وذهاب مائها قاله الحسن ، وقال الضحاك وقتاده : غاض ماؤها فذهب فلم يبق فيها قطرة[٢].

القول الثالث : قيل ملئت ترابا تسوية لها بأرض المحشر. وعقب عليه الألوسى بقوله : ليس له مستند عن السلف[٣].

القول الرابع : ملئت وفُجر بعضها إلى بعض حتى تعود بحرا واحدا من سجر التنور إذا ملأه بالحطب[٤]. قاله الضحاك ، والسدى ، والربيع بن خيثم ، والكلبى[٥].

---

(١) تفسير الرازى / جـ٣١ / صـ٦٣.

(٢) الطبرى / جـ٣٠ / صـ٤٤.

(٣) الالوسى / حـ٣٠ / صـ٥٢.

(٤) الزمخشرى / جـ٦ / صـ٣٢١.

(٥) ابن كثير / جـ٤ / صـ٦١٢ ، الطبرى / حـ٣٠ / صـ٤٣ .

وإذا تأملنا المعنى اللغوى لكلمة (سجرت) نجد أنها تأتى بمعنى إيقاد النار واشتعالها ، وكذلك بمعنى الامتلاء، وبناءً عليه فإنى أرجح القول الأول والرابع لدخولهما فى معنى الآية دخولا أوليا ، وإن كان الأظهر فيهما هو القول الرابع القائل بأن تسجير البحار هو امتلاؤها وفيضانها بالماء نتيجة إزالة الحواجز التى بينها حتى تصير بحرا واحدا، وهذا ما رجحة الطبرى رحمه الله بقوله :وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب قول من قال معنى ذلك ملئت حتى فاضت فانفجرت وسالت كما وصفها الله فى الموضع الآخر فقال (وإذا البحار فجرت)[١].

وقال الرازى : قد يكون (سُجرت) بمعنى فُجرت لأن بين البحار حاجزا على ما قال الله (مرج البحرين يلتقيان. بينهما برزخ لا يبغيان)[٢] فإذا رفع الله ذلك الحاجز فاض البعض فى بعض حتى صار بحرا واحدا ، وملئت حتى كان ما فيها أكثر منها[٣]. وبنحوه قال الزمخشرى[٤] ، والبقاعى[٥] ، وابن عاشور[٦].

---

(١) تفسير الطبرى / جـ٣٠ / صـ٤٤.

(٢) سورة الرحمن / ١٩ ، ٢٠.

(٣) الرازى / جـ٣١ / صـ٦٣.

(٤) الزمخشرى / جـ٦ / صـ٣٢١.

(٥) نظم الدرر / جـ٨ / صـ٣٣٧.

(٦) التحرير والتنوير / جـ١٥ / صـ٤٣

المشهد السابع

تزويج النفوس

قال تعالى (وإذا النفوس زوجت)[١]

لما ذكر الله سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة ما ذكر من الأهوال العظام والخطوب الجسام فى مشاهد ستة تحدث قبيل قيام الساعة ، وكان حدوثها بمثابة نذر محدقة ، وقوارع مرجفة ، أعقبة بذكر ستة أخرى تقع بعد قيام الساعة وبدأ بأولها وهو تشوف النفوس إلى معرفة ما يفعل بها ، وما يؤل إليه مصيرها ترغيبا وترهيبا فقال سبحانه (وإذا النفوس زوجت)

يقول ابن عاشور : هذه الآية شروع فى ذكر الأحوال الحاصلة فى الآخرة يوم القيامة ، وانتقل إلى ذكرها لأنها تحصل عقب الستة التى قبلها ، وبدأ بأولها وهو تزويج النفوس[٢].

والتزويج هو جعل الشيىء زوجا لغيره بعد أن كان فردا. وتزويج الشيىء بالشيىء قرنه به قال تعالى (وزوجناهم بحور عين)[٣] أى قرناهم بهذا.

ويطلق الزوج على الصنف وفى التنزيل (وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج)[٤] وقوله (ثمانية أزواج)[٥] أى أصناف.

كما يطلق على النوع من كل شيء ومنه قوله (وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا به أزواجا من نبات شتى)[٦] أي أنواعا متشابهة[٧].

---

(١) سورة التكوير ٧.

(٢) التحرير والتنوير / جـ١٥ / صـ١٤٣.

(٣) سورة الطور / ٢٠.

(٤) سورة ق / ٧.

(٥) سورة الانعام / ١٤٣.

(٦) سورة طه / ٥٣.

(٧) المعجم الوسيط / جـ١ / صـ٤٠٥ - ٤٠٦ ، والمفردات صـ٢٢١ - ٢٢٢ بتصرف.

ومن هنا اختلف المفسرون فى المراد من تزويج النفوس الوارد فى الآية على أقوال نوردها على النحو التالى :

القول الأول : ردت الأرواح إلى الأجساد فزوجت بها[١].

وعليه فالمراد بالنفوس الأرواح ، ويؤيده ما أورده ابن كثير فى تفسيره نقلا عن ابن أبى حاتم بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : يسيل واد من أصل العرش من ماء فيما بين الصيحتين ومقدار ما بينهما أربعون عاماً ، فينبت منه كل خلق بلى من الإنسان أو طير أو دابة ، ولو مر عليهم مار قد عرفهم قبل ذلك لعرفهم على وجه الأرض قد نبتوا ، ثم ترسل الأرواح فتزوج الأجساد فذلك قول الله تعالى (وإذا النفوس زوجت). وكذا قال أبو العالية ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير، والشعبى ، والحسن البصرى أيضا فى قوله تعالى (وإذا النفوس زوجت) أى زوجت بالأبدان[٢].

القول الثانى: قرنت النفوس بأشكالها.

روى ابن جرير بسنده عن النعمان بن بشير قال سئل عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن قول الله تعالى (وإذا النفوس زوجت) قال : يقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح فى الجنة وبين الرجل السوء مع الرجل السوء فى النار[٣]. وبه قال الحسن ، وقتادة ، والضحاك ، وهو أحد قولى عكرمة والشعبى[٤].

وروى الطبرى من طريق آخر عن النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب فى قوله (وإذا النفوس زوجت) قال هم الضرباء ، كل رجل مع كل قوم كانوا يعملون بعمله، وذلك أن الله يقول (وكنتم أزواجا ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة. وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة. والسابقون السابقون)[٥]. قال هم الضرباء[٦].

---

(١) زاد المسير /جـ٨/صـ٢٠٩.

(٢) ابن كثير /جـ٤/صـ٦١٣.

(٣) الطبرى /جـ٣٠/صـ٤٤.

(٤) زاد المسير /جـ٨/صـ٢٠٩ ، وابن كثير /جـ٤/صـ٦١٣.

(٥) سورة الواقعة م ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠.

(٦) الطبرى / جـ٣٠ / صـ٤٤- ٤٥.

وذكر الطبرى نحوه عن ابن عباس ، وقتادة[١] .

القول الثالث: زوجت أنفس المؤمنين بالحور العين ، وأنفس الكافرين بالشياطين ، وهو راجع إلى القول السابق[٢].

القول الرابع : زوجت النفوس بأعمالها. أى قرنت بها. وقيل: بكتابها. وقيل: بخصمها فلا يمكنها الفرار[٣].

هذه جملة أقوال المفسرين فى المراد من تزويج النفوس فى الآية الكريمة ، وكلها أقوال متقاربة ، وإن كان أظهرها هما القولين الأول والثانى ، ويعلل ابن عاشور رحمه الله لترجيحهما فيقول: ولعل قصد إفادة هذا التركيب لهذين المعنيين هو مقتضى العدول عن ذكر ما زوجت النفوس به ، وأول منازل البعث اقتران الأرواح بأجسادها ثم تقسيم الناس إلى مراتبهم للحشر كما قال تعالى (ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون)[٤] ثم قال (وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً .... ثم قال وسبق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً ....)[٥].

وقد رجح الطبرى القول الثانى فقال : وأولى التأويلين فى ذلك بالصحة الذى تأوله عمر ابن الخطاب رضى الله عنه للعلة التى اعتل بها وذلك قوله (وكنتم أزواجا ثلاثة ...) وقوله (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ...) وذلك لا شك الأمثال ، والأشكال فى الخير والشر وكذلك قوله (وإذا النفوس زوجت)[٦].

---

(١) الطبرى/جـ٣٠/صـ٤٤-٤٥ ، والقرطبى /جـ٨/صـ٢٠١.

(٢) بدائع التفسير لابن القيم /جـ٥/صـ٤٤.

(٣) الألوسى /جـ٣٠/صـ٥٢.

(٤) الزمر/ ٦٨ ، ٧١ ، ٧٣.

(٥) التحرير والتنوير /جـ١٥/صـ١٤٣.

(٦) الطبرى /جـ٣٠/صـ٤٥.

المشهد الثامن

سؤال الموؤدة

قال تعالى ﴿وإذا الموؤدة سئلت بأى ذنب قتلت﴾(١).

لما ذكر سبحانه فى الآية السابقة تصنيف النفوس حسب أعمالها وما آلت إليه ، ذكر فى هذه الآية سؤال الموؤدة عن سبب وأدها ، وهو سؤال يفهم منه العموم فقال سبحانه (وإذا الموؤدة سئلت بأى ذنب قتلت).

يقال وأد الرجل ابنته يئدها وأداً دفنها وهى حية ، والوأد عادة جاهلية وهى أن يدفن الرجل ابنته حية وفى التنزيل (وإذا الموؤدة سئلت بأى ذنب قتلت)[٢].

وسميت الموؤدة بذلك لما يطرح عليها من التراب فيوئدها أى يثقلها حتى تموت ومنه قوله (ولا يؤده حفظهما وهو العلى العظيم)[٣] أى لا يثقله[٤].

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال كانت المرأة فى الجاهلية إذا حملت فكان أوان ولادتها حفرت حفيرة فتمخضت على رأس الحفيرة ، فإن ولدت جارية رمت بها فى الحفيرة ، وإن ولدت غلاما حبسته[٥].

وذكر غير واحد أنه كان الرجل منهم إذا ولدت له بنت فأراد أن يستحييها ألبسها جبة من صوف أو شعر ترعى له الإبل والغنم فى البادية ، وإن أراد قتلها تركها حتى إذا كانت سداسية فيقول لأمها طيبيها وزينيها حتى أذهب إلى أحمائها وقد حفر لها بئراً فى الصحراء فيبلغ بها البئر فيقول لها انظرى فيها ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب حتى تستوى البئر بالأرض[٦].

---

(١) سورة التكوير /٨.

(٢) المعجم الوسيط /جـ٢/صـ١٠٠٦.

(٣) سورة البقرة م٢٥٥.

(٤) القرطبى /جـ١٩ /صـ٢٠٢.

(٥) زاد المسير /جـ٨/صـ٢٠٩.

(٦) الألوسى /جـ٣٠/صـ٥٢.

هذا ولم تكن هذه الجريمة موجودة فى جميع قبائل العرب ، قيل أول من وأد البنات من القبائل ربيعة ، وكانت كندة تلد البنات ، وكانت بنو تميم يفعلون ذلك ، ووأد قيس بن عاصم المنقرى من بنى تميم ثمان بنات له قبل إسلامه ، ولم يكن الوأد فى قريش البته ، وكان صعصعة بن ناجية جد الفرزدق من بنى تميم يفتدى من يعلم أنه يريد وأد ابنته من قومه بناقتين عشراوين وجمل فقيل إنه افتدى ثلاثمائة وستين موؤدة ، وقيل سبعين[١].

وقد نعى القرآن على أهل الجاهلية إقدامهم على تلك الجريمة فقال سبحانه (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم. يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون)[٢].

يقول الزمخشرى: فإن قلت ما حملهم على وأد البنات ؟ قلت الخوف من لحوق العار بهم من أجلهن ، أو الخوف من الإملاق كما قال تعالى (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقهم وإياكم)[٣] وكانوا يقولون إن الملائكة بنات الله فألحقوا البنات به فهو أحق بهن[٤].

وما معنى سؤال المؤدة عن ذنبها الذى قتلت به ، وهلا سئل الوائد عن موجب قتلها له؟ قلت: سؤالها وجوابها تبكيت لقاتلها نحو التبكيت للنصارى فى قوله تعالى لعيسى[٥] (أنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ماليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب ...)[٦].

---

(١) التحرير والتنوير / جـ١٥ /صـ١٤٦.

(٢) سورة النحل / ٥٨ ، ٥٩.

(٣) سورة الأنعام / ١٥١.

(٤) الزمخشرى / جـ٦ / صـ٣٢٢.

(٥) المصدر السابق.

(٦) سورة المائدة / ١١٦.

ففى ذلك توبيخ للنصارى الذين عبدوه من دون الله ، فكذلك سوأل المودة توبيخ لوائدها وهو أبلغ من سؤالها عن قتلها لأن هذا مما لا يصح إلا بذنب فبأى ذنب كان ذلك فإذا ظهر أنه لا ذنب لها كان أعظم فى البلية وظهور الحجة على قاتلها[١]، وكان استحقاقه للعذاب أشد.

والاستفهام فى قوله (بأى ذنب قتلت) تقريرى ، وإنما سئلت عن تعيين الذنب الموجب قتلها دون أن تسأل عن قاتلها لزيادة التهديد ، لأن السؤال عن تعيين الذنب مع تحقق الوائد الذى يسمع ذلك السؤال أن لا ذنب لها ، إشعار للوائد بأنه غير معذور فيما صنع بها[٢].

وقرىء (وإذا المؤدة سألت) أى خاصمت عن نفسها وسألت الله أو قاتلها ، وإنما قيل (قتلت) ماضياً مبنياً للمجهول على طريق خطاب الغائب بناء على أن الكلام إخبار عنها ، ولو حكى ما خوطبت به حين سئلت لقيل (قتلت) بالبناء للمجهول بطريق الخطاب[٣].

وقد استدل الزمخشرى رحمه الله بالآية على أن أطفال المشركين لا يعذبون وفى ذلك يقول: فى الآية دليل بين على أن أطفال المشركين لا يعذبون ، وعلى أن التعذيب لا يستحق إلا بذنب وإذا بكت الله الكافر ببراءة المؤدة من الذنب فما أقبح به وهو الذى لا يظلم مثقال ذرة أن يكر عليها بعد هذا التبكيت فيفعل بها ما تنسى عنده فعل المبكت من العذاب الشديد السرمد. وعن ابن عباس أنه سئل عن ذلك فاحتج بهذه الآية[٤].

---

(١) القرطبى / جـ١٩ / صـ٢٠٢.

(٢) التحرير والتنوير / جـ١٥ / صـ١٤٦.

(٣) غرائب القرآن للنيسابورى / جـ٦ / صـ٤٥٣.

(٤) الكشاف / جـ٦ / صـ٣٢٢.

يقول ابن عاشور[١] رحمه الله تعالى: أشار الزمخشرى بقوله هذا إلى ثلاثة أدلة أحدها: دلالة الإشارة لأن قوله تعالى (بأى ذنب قتلت) يشير إلى أنها لا ذنب لها، وهذا استدلال ضعيف لأن الذنب المنفى وجوده بطريقة الاستفهام المشوب بالإنكار إنما هو الذنب الذى لا يخول لأبيها وأدها لإثبات حرمتها وعصمة دمها فتلك قضية أخرى على تفصيل فيها.

الثانى: قاعدة إحالة فعل القبيح على الله تعالى بناء على قاعدة التحسين والتقبيح عند المعتزله ، واحالتهم الظلم على الله إذا عذب احدا بدون فعله ، وهو أصل مختلف فيه بين الأشاعرة والمعتزلة ، فعندنا أن تصرف الله فى عبيده لا يوصف بالظلم خلافا لهم ، على أن هذا الدليل مبنى على أساس الأول وقد علمت أنه غير سالم من النقض.

الثالث : ما نسبه إلى ابن عباس وهو يشير الى ما أخرجه ابن أبى حاتم بسنده عن عكرمة أنه قال: قال ابن عباس أطفال المشركين فى الجنة فمن زعم أنهم فى النار فقد كذب بقوله تعالى (وإذا الموؤدة سئلت بأى ذنب قتلت) وقد أجيب عن القول المروى عن ابن عباس بأنه لم يبلغ مبلغ الصحة ، وهذه مسألة من أصول الدين لا يكتفى فيها إلا بالدليل القاطع.

واعلم أن الأحاديث الصحيحة فى حكم أطفال المشركين متعارضة فقد أخرج البخارى[٢] فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن ذرارى المشركين فقال: الله أعلم بما كانوا عاملين.

وهذا الجواب يحتمل الوقف عن الجواب كقول موسى عليه السلام (علمها عند ربى) جوابا لقول فرعون (فما بال القرون الأولى)[٣] ويحتمل أن يكون المعنى الله أعلم

---

(١) التحرير والتنوير / جـ١٥ / صـ١٤٧ ، ١٤٨.

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه /كتاب الجنائز/باب ما قيل فى أولاد المشركين/جـ١/صـ٤٦٥/برقم ١٣١٨.

(٣) سورة طه /٥١.

بحال كل واحد منهم لو كبر ماذا يكون عاملاً من كفر أو إيمان ، أى فيعامله بما علم من حاله.

وأخرج الإمام مسلم فى صحيحه[١] عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ثم يقول أبو هريرة اقرؤا إن شئتم (فطرة الله التى فطر الناس عليها). فيقتضى أنهم يولدون على فطرة الإسلام حتى يدخل عليه من أبويه أو قريبه أو قرينه ما يغيره عن ذلك وهذا أظهرما يستدل به فى هذه المسألة ، وقول أبى هريرة أقرأوا (فطرة الله التى فطر الناس عليها[٢] مصباح ينير وجه الجمع بين هذه الأخبار. واختلفت أقوال العلماء فى أولاد المشركين فقال ابن المبارك وحماد بن سلمة ، وحماد بن زيد ، وإسحاق بن راهويه ، والشافعى هم فى مشيئة الله. والصحيح الذى عليه المحققون والجمهور أنهم فى الجنة وهو ظاهر قول أبى هريرة ، وقد ورد فى حديث الرؤيا عن سمرة بن جندب ما هو صريح فى ذلك إذ قال رسول الله ﷺ وأما الرجل الطويل الذى فى الروضة فإنه إبراهيم عليه السلام وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة . قال سمرة : فقال بعض المسلمين يا رسول الله وأولاد المشركين؟

فقال:/ وأولاد المشركين[٣].

وذكر المازرى : أن أطفال الأنبياء فى الجنة بإجماع ، وأن جمهور العلماء على أن أطفال بقية المؤمنين فى الجنة ، وبعض العلماء وقف فيهم. وقال النووى

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه/كتاب القدر/باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين/جـ٤/صـ٢٠٤٧/برقم٢٦٥٨.

(٢) سورة الروم/٣٠.

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه/كتاب التعبير/باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح/جـ١٦/ صـ ٢٥٨٥ / برقم٦٦٤٠.

أجمع من يعتد به من علماء المسلمين على أن من مات من أطفال المسلمين فهو من أهل الجنه[١]. أ.هـ.

قال ابن كثير: وهذا هو المشهور بين الناس ، وهو الذى نقطع بـه إن شـاء الله تعالى[٢].

وقال الألوسى: والذى أختاره القول بأن الأطفال مطلقاً وكذا فرخ الزنا ومـن جن قبل البلوغ فى الجنة فهو الأخلق بكرم الله تعالى وواسع رحمته عز وجـل ، والأوفق للحكمة بحسب الظاهر ، والأكثر تأييداً بالآيـات ، ولا بعـد فـى تـرجح الأخبار الدالة على ذلك بما ذكر على الأخبار الدالة على خلافة[٣]. ا.هـ.

وإذا كانت هذه هى أقوال العلماء حول الوأد الحقيقى الظاهر أعنى دفن البنت وهى حية كما كان يفعله أهل الجاهلية سقناها إليك بشىء من التفصيل لتـتم الفائـدة ، فهناك أيضاً وأد خفى صرحت به رواية مسلم[٤] رضى الله عنه من طريق خذامـة بنت وهب قالت سئل رسول الله ﷺ عن العزل فقال ذلك الوأد الخفى. ومن هنـا قيل بحرمته ، وليس بخفى على أهل العلم أن المسألة خلافيـة ، وإليـك أقـوال العلماء فى ذلك وتجلية وجه الحق فيها:

يقول النووى : العزل وهو أن يجامع فإذا قارب الإنزال نزع وأنزل خارج الفـرج مكروه عندنا فى كل حال ، وكل امرأة سواء رضيت أم لا ، لأنه طريق إلى قطع النسل ، وأما التحريم فقد قال أصحابنا يعنى الشافعية لا يحرم فى مملوكته ولا فـى زوجتـه الأمة سواء رضيت أم لا ، لأن عليه ضرراً فى مملوكته بمصيرها أم ولـد وامتنـاع

---

(١) التحرير والتنوير/جـ١٥/صـ١٤٨، راجع شرح النووى على صحيح مسلم /جـ١٦/صـ٢٠٧

(٢) تفسير ابن كثير /جـ٤/صـ٤٧.

(٣) تفسير الألوسى /جـ٣٠/صـ٥٥.

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه/كتاب النكاح/باب جواز الغيلة وهى وطأ المرضـع وكراهـة العـزل /جـ٢/صـ٨٠٦٧/برقم ١٤٤٢.

بيعها ، وعليه ضرر فى زوجته الرقيقة بمصير ولده رقيقا تبعا لأمه ، وأما زوجته الحرة فإن أذنت فيه لم يحرم وإلا فوجهان أصحهما لا يحرم ، ثم الأحاديث التى ظاهرها التعارض فى هذا المطلب يجمع بينها بأن ما ورد منها فى النهى محمول على كراهة التنزيه ، وما ورد فى الإذن فى ذلك محمول على أنه ليس بحرام وليس معناه نفى الكراهة[١].

وأجيب على ما ورد فى رواية مسلم بأن تسميته بالوأد الخفى لا يدل على أن حكمه حكم الوأد الظاهر ، فقد صح أن الرياء شرك خفى ولم يقل أحد بأن حكمه حكمه ، ولا يبعد أن يكون الاستمناء باليد كالعزل وأداً خفياً، وذكر بعضهم أنه إذا لم يخش الزنا حرم وإن خشى لم يحرم ، وكذا لا يبعد أن يكون التفخيذ مع من يحل له وطؤها كذلك ، ولم أر قائلاً بحرمته[٢].

---

١) شرح النووى على صحيح مسلم /جـ١٠/صـ٩/ درا إحياء التراث العربى بيروت.

٢)تفسير الألوسى /جـ٣٠/صـ٥٤

المشهد التاسع

نشر الصحف

قال تعالى ﴿وإذا الصحف نشرت﴾[١]

لما ذكر سبحانه وتعالى فى الآية السابقة مشهد سؤال المؤدة وكان هذا دالاً على عموم السؤال عن الأعمال كما قال (ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر)[٢] بين سبحانه فى هذه الآية النتيجه المترتبة على السؤال من سعادة وشقاء فأهل السعادة تنشر لهم صحائفهم بعد طيها بالموت فيتناولونها بأيمانهم فرحين مستبشرين بما وجدوه فيها من الأعمال الصالحة فيقول الواحد منهم كما حكى القرآن (هاؤم اقرؤا كتابيه. إنى ظننت أنى ملاق حسابية ...)[٣].

وأما أهل الشقاوة فيأخذونها بشمائلهم من وراء ظهورهم ، قد ساءهم ما وجدوه فيها من الأعمال السيئة فحينئذ يقول الواحد منهم (يا ليتنى لم أوت كتابيه. ولم أدر ما حسابيه. ياليتها كانت القاضية. ما أغنى عنى ماليه. هلك عنى سلطانيه)[٤].

وقد بين الله تعالى أن العبد ينشر له كتابه فيقرأ ما فيه بنفسه قال تعالى (وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا. اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا)[٥].

قال ابن كثير : أى نجمع له عمله كله فى كتاب يعطاه يوم القيامة إما بيمينه إن كان سعيداً ، أو بشماله إن كان شقيا (منشورا)أى مفتوحا يقرأه هو وغيره، فيه

---

(١) سورة التكوير/٩.

(٢) سورة القيامة /١٣.

(٣) سورة الحاقة ١٩.

(٤) سورة الحاقة/٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩.

(٥) سورة الإسراء /١٣ ، ١٤.

جميع عمله من أول عمره إلى آخره[١]. كما قال تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره. ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره)[٢].

وبناء على ما سبق فإن المراد من الصحف المذكورة فى الآية صحفا حقيقية سواء كانت موافقة للصحف المألوفة أو مخالفة لها ، وهى صحف الأعمال التى كتبت الملائكه فيها ما فعل أهلها تطوى بالموت ، وتنشر أى تبسط يوم القيامة بعد أن كانت مطوية فيقف كل إنسان على صحيفته فيعلم ما فيها فيقول كما حكى القرآن (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً)[٣].

وقيل: إن الصحف المذكورة فى الآية غير صحف الأعمال تتطاير من تحت العرش. فعن مرثد بن وداعة قال: إذا كان يوم القيامة تتطاير الصحف من تحت العرش ، فتقع صحيفة المؤمن فى يده فى جنة عاليه ، وتقع صحيفة الكافر فى يده فى سموم وحميم ، أى مكتوب فيها ذلك[٤].

وقيل : إنها صحف مجازية أطلقت على أشياء فيها إحصاء وأعمال الناس[٥].

والصحيح الذى عليه جمهور المفسرين[٦] أنها صحف الأعمال وأنها حقيقة تطوى بالموت وتنشر يوم القيامة يقرأ الإنسان فيها عمله ، فالمجرمون قد هالهم الأمر وأفزعهم الخطب من سوء ما وجدوا فيدعون على أنفسهم بالويل والثبور قائلين (ياويلتنا مال لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا

---

(١) تفسير ابن كثير / جـ٣/ صـ٤١.

(٢) سورة الزلزلة /٧ ، ٨.

(٣) سورة الكهف /٤٩.

(٤) الكشاف /جـ٦/صـ٣٢٣.

(٥) التحرير والتنوير /جـ١٥/صـ١٤٩.

(٦) راجع القرطبى /جـ١٩/صـ٢٠٣، الرازى جـ٣١/صـ٦٥ ، النيسابورى جـ٦/صـ٤٥٣.

حاضرا ولا يظلم ربك أحدا)[١] وكما يشير قوله تعالى (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمرا بيعيدا)[٢]

والمؤمنون قد حفهم الله بلطفهم فأسدل عليهم كنفه فستر عليهم قبيح الفعال ، وأظهر لهم جميل الإحسان ، فاللهم اجعلنا منهم.

عن قتاده قال: هى صحيفتك يا ابن آدم تطوى على عملك حين موتك ثم تنشر يوم القيامة فلينظر رجل يملى فى صحيفته[٣].

وقال أبو الثوار العدوى : هما نشرتان وطية ، أما حييت يا بن آدم فصحيفتك المنشورة فاعمل فيها ما شئت ، فإذا مت طويت ، حتى إذا بعثت نشرت (اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا)[٤].

وعن أم سلمة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة فقلت: واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض فقال شغل الناس يا أم سلمة . قلت: ما شغلهم ؟ قال: نشر الصحف فيها مثاقيل الذر ومثاقيل الخردل[٥].

اللهم كما أسدلت علينا فى الدنيا ستائر لطفك فسترت العثرات ، وأخفيت السوءات، فاللهم أسدل علينا فى الآخرة كنفك ، فلا تفضحنا بين يديك على رؤس الأشهاد يا أرحم الراحمين.

---

(١) سورة الكهف /٤٩.

(٢) سورة آل عمران /٣٠.

(٣) غرائب القرآن للنيسابورى /جـ٦/صـ٤٥٣ ، وابن كثير /جـ٤/صـ٦١٤.

(٤) تفسير القرطبى /جـ١٩/صـ٢٠٣.

(٥) الحديث ذكره الزمخشرى فى تفسيره /جـ٦/صـ٣٢٣. وأخرجه الطبرانى فى المعجم الأوسط /جـ١/صـ٢٥٤/برقم٨٣٣.

المشهد العاشر

كشط السماء

قال تعالى ﴿وإذا السماء كشطت﴾[١]

لما ذكر الله سبحانه وتعالى فى الآية السابقة نشر الصحف وبسطها ، وما ترتب عليه من كشف أعمال النفوس خيرها وشرها ، وما أنتجه ذلك من معرفة شقيها وسعيدها أتبع ذلك بذكر كشط السماء وطيها ليبدو ما فوقها من العجائب المكنونة ، والأسرار المحجوبة فقال تعالى (وإذا السماء كشطت).

وقد بين الله تبارك وتعالى فى آيات أخرى أنه رفع السماء على الأرض بغير عمد كالقبة المضروبة ، وأن السماء والأرض قائمة بإذنه فقال سبحانه (الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون)[٢] وقال سبحانه (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا)[٣] وبين سبحانه أنه يحفظها بأجرامها من السقوط على الأرض فقال (ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه)[٤].

فإذا أراد الله فناء العالم وقيام الساعة شقها وكشطها وأزال أسباب رفعها إيذانا بتبديلها كما قال سبحانه (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار)[٥].

---

(١) سورة التكوير /٥.

(٢) سورة الرعد / ٢.

(٣) سورة فاطر / ٤١.

(٤) سورة الحج /٦٥.

(٥) إبراهيم / ٤٨.

وأصل الكشط كما قال الألوسى السلخ واستعير هنا للإزالة فقوله (وإذا السماء كشطت) أى قلعت وأزيلت كما يكشط الإيهاب عن الذبيحة ، والغطاء عن الشىء المستور[١].

وقال الراغب: أصله من كشط الناقة ، أى تنحية الجلد عنها ، ومنه استعير : انكشط روعه أى زال[٢].

وانطلاقا من هذا المعنى اللغوي فقد ذكر المفسرون فى المراد من الكشط الحاصل للسماء أقوال متقاربة فى دلالاتها على انتهاء هذا السقف المحفوظ ، وإزالته عن مكانه.

فعن مجاهد قال : كشطت أى جذبت[٣].

وقال السدى والضحاك : تنكشف فتذهب[٤].

وقال مقاتل : كشفت وأزيلت عمن فيها[٥].

وقال الفراء : نزعت فطويت[٦].

وقال الزجاج : قلعت كما يقلع السقف[٧].

وكل هذه المعانى متقاربة مؤداها أن السماء تجذب بقوة ، فتقلع كما يقلع السقف ، ثم تطوى كما يطوى السجل كما قال تعالى (يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب)[٨] حينئذ ينكشف ما فوقها من الكرسى وعرش الرحمن وأسرار الغيب المكنون.

---

(١) الألوسى/جـ٣٠/صـ٥٦.

(٢) المفردات للراغب /صـ٤٣٤.

(٣) تفسير الطبرى /جـ٣٠/صـ٤٧.

(٤) تفسير ابن كثير /جـ٤/صـ٦١٤.

(٥) تفسير البغوى /جـ٨/صـ٣٤٨.

(٦) المصدر السابق.

(٧) زاد المسير / جـ٨ / صـ٢١٠.

(٨) سورة الأنبياء / ١٠٤.

فإن قلت: هل الكشط المذكور فى هذه الآية هو نفسه الانفطار والانشقاق اللذان ذكرهما الله فى سورتى الانفطار والانشقاق؟

قلت: إن الكشط الوارد فى سورة التكوير فيما أرى مغاير للانفطار والانشقاق المذكورين ، فالكشط إزالة لسقف السماء ثم تطوى على نحو ما ذكر الله سبحانه وهو حاصل بعد الانفطار والانشقاق ، أما الانفطار والانشقاق. فمعناهما واحد وهو انفراج يحدث فى السماء يحدثه الغمام على نحو ما ذكر الله تعالى فى قوله (ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكه تنزيلا)[١] ، أو تحدثه أشراط الساعة وأهوالها[٢]. نتيجة اختلال تركيب الكرة الهوائية ، أو من ظهور أجرام كوكبية تخرج عن دوائرها المعتادة فى الجو الأعلى فتشق القبة الهوائية ، فهو انشقاق يقع عند اختلال نظام هذا العالم[٣]. أى قبل الكشط المذكور فى سورة التكوير ، وهذا الانفراج الحاصل نتيجة الانفطار والانشقاق يكون أشبه بالأبواب المفتحة على نحو ما ذكر الله تعالى فى قوله (وفتحت السماء فكانت أبواباً)[٤] أى لنزول الملائكة كما ذكرت آية الفرقان. أو أن يكون ما ذكر فى آيتى الفرقان والتكوير يخصان السماء السابعة وهو حاصل بعد قيام الساعة ، وماورد فى سورتى الانفطار والانشقاق حاصل لبقية السموات قبل قيام. والله أعلم.

وللعلامة ابن عاشور رحمه الله تعالى كلام طيب فى هذا المقام لا مانع أن نورده بطوله لنفاسته يقول: والظاهر أن المراد من الكشط الحاصل للسماء هو إزالة تقع فى يوم القيامة لأنها ذكرت فى أثناء أحداث يوم القيامة بعد قوله (وإذا النفوس زوجت) (وإذا الموؤدة سئلت) (وإذا الصحف نشرت)

---

(١) سورة الفرقان /٢٥.

(٢) الألوسى / جـ٣٠/صـ٧٨.

(٣) التحرير والتنوير /جـ١٥/صـ٢١٨.

(٤) سورة النبأ /١٩.

فالظاهر أن السماء تبقى منشقة منفطرة تعرج الملائكة بينها وبين أرض المحشر حتى يتم الحساب ، فإذا قضى الحساب وأزيلت السماء من مكانها ، فالسماء مكشوطة ، والمكشوط عنه عالم الخلود ويكون قوله (كشطت) استعارة للإزالة.

ويجوز أن يكون هذا من الأحداث التى جعلت أشراطا للساعة وأخر ذكره لمناسبة ذكر نشر الصحف ، لأن الصحف تنشرها الملائكة وهم من أهل السماء فيكون هذا الكشط من قبيل الانشقاق فى قوله (إذا السماء إنشقت) والانفطار فى قوله (إذا السماء انفطرت) فيكون الكشط لبعض أجزاء السماء والمكشوط عنه بعض آخر ، فيكون من قبيل قوله (إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط)[١] ومن قبيل الطى فى قوله (يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده)[٢].

لأن ظاهره اتصال طى السماء بإعادة الخلق ، وتصير الأشراط التى تحدث قبل البعث سبعة ، والأحداث التى تقع قبل البعث خمسة[٣] ا.هـ

---

(١) سورة الأعراف /٤٠.

(٢) سورة الأنبياء /١٠٤.

(٣) التحرير والتنوير جـ١٥ / صـ١٥١.

المشهد الحادى عشر

تسعير الجحيم

قال تعالى ﴿وإذا الجحيم سعرت﴾[١]

لما ذكر الله تبارك وتعالى فى الآية السابقة مشهداً مروعاً لا يقل هولاً عن سوابقه، تمثل فى كشط السماء وإزالتها بقدرته ، ذكر فى هذه الآية ما أنتجه ذلك المشهد من انكشاف لعالم الخلود والبقاء وظهر ما اشتمل عليه من مرهبات تمثلت فى ذكر دار الأشقياء ، ومرغبات تمثلت فى ذكر دار السعداء قال تعالى (وإذا الجحيم سعرت) أى أوقدت وأضرم نارها تهيئة لاستقبال أهلها من الكفرة والمشركين الذين عادوا الله وآذوا رسله.

يقال سعر النار : أوقدها. واستعرت النار توقدت[٢].

والجحيم علم على النار التى تتأجج وتستعر.

قال السدي: (وإذا الجحيم سعرت) قال: أحميت[٣].

وقال قتاده : أوقدت ، قال : إنما يسعرها غضب الله وخطايا بنى آدم[٤].

والتشديد فيها للمبالغة كأنها أوقدت مرة بعد مرة ، وزيد فى إيقادها حتى توقد إيقاداً شديداً.

أخرج الترمذى[٥] فى سننه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى أبيضت ، ثم أقد عليها ألف سنه حتى اسودت فهى سوداء مظلمة.

---

(١) سورة التكوير /١٢.

(٢) المعجم الوسيط /جـ١/صـ٤٣٠.

(٣) تفسير ابن كثير /جـ٤/ص/٦١٤.

(٤) تفسير الطبرى /جـ٣٠صـ٤٧.

(٥) أخرجه الترمزى/كتاب صفة جهنم/باب بوب له ولم يكتب اسم الباب/جـ٤/ص٧١٠/برقم ٢٥٩١.

وقد بين سبحانه فى آية أخرى أن النار تكاد تتقطع من الغيظ عند رؤية أصحابها قال تعالى (وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير. إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير...)[١] وقال تعالى (إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا)[٢] ولعل السبب فى تسعير الجحيم هو قرب مجازاة الكافرين فهى تستعد لاستقبالهم وذلك بتسعيرها وإيقادها وقد ورد فى السنة أنها تأتى يوم القيامة إلى الموقف تقاد بسبعين ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها كما قال تعالى (وجىء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى)[٣].

أخرج مسلم[٤] فى صحيحه بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها.

فبينما الناس فى الكروب والأهوال والشدائد إذا سمعوا لها تغيظاً وزفيرا ينبئان عن شدة الغيظ والغضب ، فعندئذ يود المجرم لو يفتدى نفسه بولده وزوجه وماله وماكسب ، وكيف الفدا وقد جثت الأمم على الركب. نسأل الله السلامة والعافية.

---

(١) سورة الملك /٦ ، ٧ ، ٨.

(٢) سورة الفرقان /١٢.

(٣) سورة الفجر /٢٣.

(٤) صحيح مسلم /كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها / باب فى شدة حر نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعذبين / جـ٤/صـ٢١٨٤ / برقم ٢٨٤٢.

المشهد الثانى عشر

إزلاف الجنة

قال تعالى ﴿وإذا الجنة أزلفت. علمت نفس ما أحضرت﴾[١]

لما ذكر الله سبحانه وتعالى فى الآية السابقة ما أعده للأشقياء الفجار من دار العذاب تخويفا وترهيبا ، ذكر بعده ما أعده للسعداء الأبرار من دار النعيم تشويقا وترغيبا فقال تعالى (وإذا الجنة أزلفت. علمت نفس ما أحضرت).

وأصل الإزلاف فى اللغة القرب والدنو. يقال: زلف زلفاً وزليفاً ، أى دنا وتقدم ، وزلف الشىء : قدمه وقربه ، والزلفى القربى والمنزلة[٢]، ومنه قوله (وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى)[٣].

فإزلاف الجنة هو تقريبها بما فيها من نعيم للمتقين الأبرار فيزدادون سروراً وبهاءاً ، فى الوقت الذى سُعرت فيه الجحيم لأهلها فازدادوا حسرة وشقاءاً ، قال تعالى (وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد)[٤].

قال الضحاك ، وأبو مالك ، وقتاده ، والربيع بن خيثم (وإذا الجنة أزلفت) أى قربت إلى أهلها[٥].

وعن الربيع بن خيثم فى قوله (وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت) قال: إلى هذين ما جرى الحديث فريق إلى الجنة وفريق إلى النار[٦].

---

(١) سورة التكوير / ١٢ ،١٣.

(٢) المعجم الوسيط /جـ١/صـ٣٩٧.

(٣) سورة سبأ /٣٧.

(٤) سورة ق /٣١.

(٥) تفسير بن كثير /جـ٤/صـ٦١٤.

(٦) الطبرى /جـ٣٠/صـ٤٧.

قال الطبرى: يعنى الربيع بقوله إلى هذين ما جرى الحديث: أن أبتداء الخبر (إذا الشمس كورت) إلى قوله (وإذا الجحيم سُعرت) إنما عددت الأمور الكائنة التى نهايتها أحد هذين الأمرين وذلك المصير إما إلى الجنة وإما إلى النار[١].

وبناء على ما سبق فإن الجنة تقرب يوم القيامة لأهلها وعشاقها من المؤمنين الذين ءامنوا بالله تعالى وصدقوا رسله ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل نصرة دينه ، وإعلاء كلمته ، قد شغلهم والله الحنين إليها عن التفكير فيما سواها من عرض الدنيا وزخرفها ، فقاموا مشمرين لتحصيل أسباب الوصول إليها ، فهجروا دفىء المضاجع ، وقاموا بالأسحار يناجون رب الأرض والسموات ، قد نصبوا أقدامهم فى ذل وافتقار ، وعفروا وجوههم فى خضوع وانكسار ولسان حالهم يقول كما حكى القرآن (ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد)[٢].

روى البخارى[٣] فى صحيحة عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : قال الله تعالى أعددت لعبادى الصالحين ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فاقرأوا إن شئتم (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاءاً بما كانوا يعملون[٤] .

قوله (علمت نفس ما أحضرت) جواب الشرط للظروف السابقة من أول السورة إلى هنا ، اى أيقنت كل نفس ما عملته من خير أو شر ، ورأت ذلك رأى العين.

قال ابن كثير فى قوله (علمت نفس ما أحضرت): هذا هو الجواب ، أى إذا وقعت هذه الأمور حينئذ علمت كل نفس ما عملت وأحضر ذلك لها كما قال تعالى

---

(١) المصدر السابق.

(٢) سورة ال عمران / ١٩٤.

(٣) اخرجه البخارى فى صحيحة / كتاب بد الخلق / باب ما جاء فى صفة الجنة وانها مخلوقة / جـ٣ / صـ١١٨٥ / برقم ٣٠٧٢.

(٤) سورة السجدة / ١٧.

(يوم تجد كل نفس ما علمت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا)[١] وقال تعالى (ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ٠ بل الإنسان على نفسه بصيره ٠ ولو ألقى معاذيره)[٢].

وعن عمر بن الخطاب أنه قرأ أول هذه السورة فلما بلغ (علمت نفس ما احضرت) قال : لهذا أجريت القصة[٣].

والمراد بالنفس فى الآية عموم الأنفس ، لأن النكرة فى سياق الشرط مراد بها العموم كما أفاد ابن عاشور ، أى علمت كل نفس ما أحضرت ، وهذا العموم مستفاد من القرينة الدالة على أنه ليس المقصود نفس واحدة من جنس النفوس ، ولا يخطر ببال السامع أن هذه الشروط التى وردت من أول السورة أنها شروط لنفس أو لشخص واحد وقد قال تعالى (يوم تجد كل نفس ما علمت من خير محضرا وما علمت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا) [٤] حيث أتت (كل) فى الآية وهى من صيغ العموم فدل هذا على أن المراد من (النفس) الواردة فى آية التكوير عموم الأنفس. وهذا ما أشار إليه العلامة الألوسى حيث قال : وتنكير النفس المفيد لثبوت العلم لفرد من النفوس أو لبعض منها للإيذان بأن ثبوته لجميع أفرادها قاطبة من الظهور والوضوح بحيث لا يكاد يحوم حوله شائبة قطعا يعرفه كل أحد. واشتهر أن النكرة هنا فى معنى العموم ، وهى تعم فى الإثبات إذا اقتضى المقام أو نحوه ذلك[٥] ا.هـ

والمراد من حضور الأعمال فى الآية إما حضور الصحائف التى كتبت فيها كما يعرب عن ذلك قوله (وإذا الصحف نشرت) ٠ أو حضور نفس الأعمال مجسدة

---

(١) سورة ال عمران / ٣٠.

(٢) سورة القيامة / ١٣.

(٣) القرطبى / جـ١٩ / صـ٢٠٥.

(٤) سورة ال عمران / ٣٠.

(٥) تفسير الالوسى / جـ٣٠ / صـ٥٧.

فى الآخرة، فتبرز فى صورة جوهرية مناسبة لها فى الحسن والقبح على كيفيات مخصوصة ، وهيئات معينة ، وتجسيد المعانى فى صورة حسية جائز دل عليه قوله (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا)[١].

وقد ذكر الألوسى هذين المعنيين لحضور الأعمال فى تفسيره. وأضاف ابن عاشور[٢] معنى ثالثا هو: أن المراد من حضور الأعمال هو حضور آثارها من الثواب والعقاب. وفى إسناد الإحضار إلى النفوس فى الآية أشارة إلى أنها الفاعلة للأعمال التى يظهر الجزاء عليها يومئذ من قبيل إسناد فعل الشيىء إلى سببه بمعنى إسناد السبب إلى المسبب دل عليه قوله تعالى (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً...) حيث تضمنت الآية السبب وهو النفس والمسبب عنها وهو الأعمال خيرها وشرها.

---

(١) سورة النساء / ١٠.

(٢) التحرير والتنوير / جـ ١٥ ، صـ ١٥٥.

الخاتمة

أحمد الله تعالى أن وفقنى للكتابة فى هذا الموضوع إلى أن وصل إلى غايته وقد ضمنته مقدمه وتمهيد وقد حاولت تمهيده بالحديث عن اسم السورة ومكان نزولها وعدد أياتها ثم المعنى العام لسورة التكوير ثم المناسبة لسورة التكوير والتى قبلها أعنى سورة عبس .

ثم تناولت المشاهد التى تحدثت عنها السورة الكريمة فبدأت بأولها وهو تكوير الشمس ومحو ضؤها وما يترتب على ذلك من انتهاء نفعها وتسخيرها لجميع الخلائق ، ثم تكلمت عن المشهد الثانى وهو انكدار النجوم وطمسها وإنفراط عقدها وتساقطها إيذانا بإنتهاء مهمتها وما خلقت من أجلها ، ثم تكلمت عن المشهد الثالث وهو تسيير الجبال وبيان مهمتها التى سخرها الله من أجلها وكيفية هذا التسيير والتوفيق بين الآيات التى تحدثت عن أحوال الجبال. ثم تكلمت عن المشهد الرابع وهو تعطيل العشار ذاكرا أقوال المفسرين فى المراد بالعشار وكيفية تعطيلها وبينت الراجح منها . ثم تكلمت عن المشهد الخامس وهو حشر الوحوش مبينا المعانى التى وردت عليها كلمة الحشر فى القرآن الكريم ، والمراد بحشر الوحوش فى الآية الكريمة وهل هذا المشهد خاص بالوحوش فقط ام بجميع الحيوانات وبينت أقوال المفسرين فى ذلك والراجح منها ثم تحدثت عن المشهد السادس وهو تسجير البحار مبينا معنى التسجير فى اللغة وأقوال المفسرين فى المراد من تسجير البحار والراجح منها ، ثم تحدثت عن المشهد السابع وهو تزويج النفوس وذكرت أقوال المفسرين فى المراد به فى الآية مبينا القول الراجح فى ذلك. ثم تحدثت عن المشهد الثامن وهو سؤال الموؤدة المؤذن بسؤال الناس عامة يوم القيامة عن أعمالهم ذاكرا معنى الوأد فى اللغة والمراد به فى الآية وبيت ما كان من أمر بعض المشركين فى الجاهلية تجاه تلك الجريمة والحكمة من سؤال الموؤدة عن ذنبها التى قتلت به ولماذا لم يسأل الوائد عن موجب قتله لها وكيف أن الله حرم قتل النفس إلا بالحق .

ثم ذكرت المشهد التاسع وهو نشر الصحف مبينا أقوال المفسرين فى المراد بالصحف ومعنى نشرها وما يترتب على ذلك من بشارة أهل السعادة ونذارة أهل الشقاوة ، ثم تحدثت عن المشهد العاشر وهو كشط السماء ذاكرا أقوال المفسرين فى المراد منه والراجح من هذه الأقوال ، ثم تحدثت عن المشهد الحادى عشر وهو تسعير الجحيم مبينا أصل التسعير فى اللغة والحكمة من تسعير الجحيم وكيفية تسعيرها ، ثم ختمت هذا البحث بالحديث عن المشهد الثانى عشر وهو إزلاف الجنة مبينا المراد من ازلافها وكيف كان وقع هذا الختام على الأنفس التى أذهلتها تلك المشاهد فلاذت بحما الله تعالى تطلب فى كنف رحمته الأمن والأمان والرحمة والرضوان .

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهة الكريم ، وأن ينفع به كل من تلمسه يداه للقراءة فيه .

كتبه أبو محمد

الدكتور / السيد عبد الرؤوف إبراهيم

الأستاذ المساعد بكلية أصول الدين والدعوة جامعة الأزهر

فرع الزقازيق / قسم التفسير وعلوم القرآن

فهرس المراجع والمصادر

أولا: القران الكريم

ثانيا: مصادر التفسير

١- جامع البيان فى تفسير القران لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنه ٣١٠ هجرية. الطبعة الثالثة سنه ١٣٩٨هـ ، سنة١٩٧٨م. دار المعرفة بيروت.

٢- الجامع لأحكام القران لأبى عبدالله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى تحقيق عبد الرازق المهدى. الطبعة الأولى سنه ١٤١٨هـ. سنة ١٩٩٧م. دار الكتاب العربى.. بيروت لبنان

٣- تفسير القرآن العظيم للحافظ أبى الفداء إسماعيل بن كثير القرشى المتوفى سنه ٧٧٤ هجرية. مؤسسة الريان للطباعة والنشر.

٤- التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازى المتوفى سنه ٦٠٦ هجرية. الطبعة الأولى سنه ١٤١١ هـ سنه ١٩٩١ م. دار الكتب العلمية. بيروت لبنان

٥- تفسير التحرير والتنوير لسماحة الشيخ محمد الطاهر بن عاشو. دار سحنون للنشر والتوزيع. تونس

٦- زاد المسير فى علم التفسيرلأبى الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن على بن محمد الجوزى. تحقيق أحمد شمس الدين. الطبعة الأولى سنه ١٤١٤م دار الكتب العلمية. بيروت لبنان.

٧- تفسير الخازن المسمى لباب التأويل فى معانى التنزيل تأليف الإمام العلامة علاء الدين على بن محمد ابن إبراهيم البغدادى المعروف بالخازن المتوفى سنه ٧٢٥هـ. دار الفكر بيروت سنه ١٣٩٩هـ - سنه ١٩٧٩م

٨- روح المعانى فى تفسير القران العظيم والسبع المثانى للعلامة أبى الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسى البغدادى المتوفى سنة ١٢٧٠هـ الطبعة

الرابعة سنه ١٤٠٥هـ / سنه ١٩٨٥م. دار إحياء التراث العربى. بيروت لبنان.

٩- تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين محمد بن الحسن القمى النيسابورى المتوفى سنه ٧٣٨هـ. تحقيق الشيخ زكريا عميرات الطبعة الأولى سنه ١٤١٦هـ - سنه ١٩٩٦م. دار الكتب العلمية. بيروت لبنان

١٠- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل تأليف ابى القاسم جار الله محمود عمر الزمخشرى الخوارزمى المتوفى سنه ٥٣٨هـ تحقيق وتعليق الشيخ عادل عبد الموجود والشيخ على محمد معوض. الطبعة الأولى سنه ١٤١٨هـ / سنه ١٩٩٨م. الناشر مكتبة العبيكان.

١١- نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للإمام برهان الدين أبى الحسن إبراهيم ابن عمر البقاعى المتوفى سنه ٨٨٥هـ خرج آياته وآحاديثة ووضع حواشيه عبد الرزاق غالب المهدى الطبعة الأولى سنه ١٤١٥هـ - سنه ١٩٩٥م. دار الكتب العلمية. بيروت لبنان.

١٢- فى ظلال القرآن للأستاذ الشهيد سيد قطب. الطبعة الخامسة سنه ١٣٩٧هـ - سنه ١٩٧٧م. دار الشروق . بيروت لبنان.

١٣- تفسير البغوى. المعروف بمعالم التنزيل لأبى محمد الحسينى بن مسعود الفراء البغوى المتوفى سته ٥١٦هـ. تحقيق محمد عبدالله النمر وعثمان جمعه دار طيبة للنشر.

١٤- بدائع التفسير الجامع الإمام بن القيم الجوزية جمع وتوثيق يسرى السيد محمد. الطَبعة الأولى سنه ١٤١٤هـ - سنه ١٩٩٣م. دار بن الجوزى للتوزيع. السعودية.

١٥- تفسير أبى السعود المسمى (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم) لقاضى القضاة أبى السعود محمد بن محمد العمادى. المتوفى سنة ٩٥١هـ الطبعة الرابعة ١٤١٤هـ ١٩٩٤م دار إحياء التراث العربى بيروت.

١٦- تفسير البحر المحيط للشيخ محمد بن يوسف الشهير بأبى حيان الأندلسى الغرناطى (٦٤٥ - ٧٥٤هـ) الطبعة الثانية (١٤١٣ - ١٩٩٢م). دار الكتاب الإسلامى القاهرة.

١٧- البرهان فى تناسب سور القرآن للامام الحافظ أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفى ٦٢٧ - ٧٠٨هـ تحقيق سعيد فلاح. ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م. إدارة الثقافة والنشر. المملكة العربية السعودية.

١٨- تناسق الدرر فى تناسب السور للإمام جلال الدين بن عبد الرحمن السيوطى. تحقيق عبد القادر أحمد عطا الله. الطبعة الأولى سنه ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م. دار الكتب العلمية. بيروت.

مراجع الحديث الشريف

١-صحيح البخارى لمحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة المعروف بالبخارى المتوفى سنه ٢٥٦هـ. تحقيق مصطفى ديب البغا. الطبعة الثالثة سنه ١٤٠٧هـ. دار بن كثير اليمامة.

٢-صحيح مسلم للإمام مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى المتوفى سنه ٢٦١ هـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى. دار إحياء التراث العربى بيروت.

٣-شرح النووى على صحيح مسلم ليحيى بن شرف الدين النووى المتوفى سنه ٦٧٦هـ الطبعة الثانية سنه ١٩٩٢م. دار إحياء التراث العربى بيروت.

٤-مسند أبو يعلى. تحقيق حسين سليم أسد الطبعة الأولى سنه ١٤٠٤هـ. دار المأمون للتراث. دمشق.

٥-سنن الترمذى لمحمد بن عيسى بن سورة المتوفى سنه ٢٧٩هـ تحقيق أحمد شاكر وآخرون. دار إحياء التراث العربى. بيروت.

٦- مجمع الزوائد للهيثمى. دار الريان للتراث. ودار الكتاب العربى بيروت سنه ١٤٠٧هـ.

٧- المستدرك لأبى عبد الله الحاكم. تحقيق مصطفى عبد القادر عطا. الطبعة الأولى سنه ١٤١١هـ. دار الكتب العلمية. بيروت

٨- المعجم الأوسط للطبرانى. تحقيق طارق بن عوض الله وعبد المحسن ابن إبراهيم.دار الحرمين القاهرة ١٤١٥هـ

مصادر المعاجم واللغة

١- المفردات فى غريب القرآن. تأليف أبى القاسم الحسينى بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى المتوفى سنه ٥٠٢هـ. تحقيق وضبط محمد خليل عيتانى. الطبعة الأولى ١٤١٨هـ سنه ١٩٩٨م. دار المعرفة. بيروت لبنان.

٢- المعجم الوسيط. مجمع اللغة العربية إخراج الدكتورإبراهيم انيس والكتور عبد الحليم منتصر والأستاذ عطية الصوالح والأستاذ خلف الله أحمد. طبع على نفقة دار إحياء التراث الاسلامى. بدولة قطر.

مصادر أخرى

١- القيامة رأى العين تأليف محمد محمود الصواف. دار الإعتصام. بالقاهرة.

٢- الكون والإعجاز العلمى فى القرآن الكريم للدكتور / منصور حسب النبى الطبعة الثالثة سنه ١٤١٦هـ ، سنه ١٩٩٦م. دار الفكر العربى القاهرة.

٣- مباحث فى إعجاز القرآن الكريم للدكتور مصطفى مسلم. الطبعة الثانية ١٤١٦هـ سنه ١٩٩٦م. دار المسلم للتوزيع والنشر الرياض.

٤- من علم الفلك القرانى للدكتور عدنان الشريف. الطبعة الأولى سنه ١٩٩١م. دار العلم للملايين.

٥- التفسير العلمى للأيات الكونية فى القرآن الكريم للأستاذ أحمد حنفى دار المعارف بمصر سنه ١٩٦٠م.

****